مواقف من حياة الرسول
الجزء الاول

للشيخ
ابوعمر احمد بن محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم

سورة الفيل

هذا يوم غريب من أيام مكة ..

..ورغم ما اعتادت عليه من شدة الحر، فإنه لم يكن فى أيامها السابقات يوم أشد حرا من هذا اليوم؛ فمنذ الشروق والشمس قاسية أشد ما تكون القسوة، وكلما مر الوقت ازدادت أشعتها ضراوة ، حتى صارت مع حلول الظهيرة سهاما مسمومة تخترق كل ما تقع عليه من شيء ، فتعمل فيه الفساد والدمار، وأصبح أهل مكة يهرولون ملتمسين الظل حتى لو كان تحت شاة أو بعير .

ووراء سلسلة الجبال التى تحيط مكة كالسوار، تناثرت بحيرات الماء فوق الرمال، وقد اشتد لمعانها حتى أنها لتخدع اعتى العارفين بطبيعة الصحراء، فهذا الانعكاس اللامع لوهج الشمس يؤكد فى حسم أن ما تراه العينان ماءا وليس سرابا .

فى هذا اللظى توقف ثعبان أسود هائل فوق الرمال ينتفض يمنة ويسرة، بعد أن أرهقه الزحف، فى محاولة لالتقاط نشقة هواء رطبة، أو خالية من ذرات التراب التى يثيرها أثناء حركته ؛ ولم يدم توقفه طويلا، فالهدف قد أصبح على مرمى البصر، فسرعان ما عاد إلى زحفه فى إصرار، مخلفا وراءه مجرى عميقا لنهر بلا ماء، مثيرا لزوابع من الغبار تصاعدت إلى عنان السماء، وتخطت ذرا الجبال الشامخات، لتزيد الصورة جهامة على جهامة .

تصايح أهل مكة فى هلع حين رأوا سحابة الغبار تجتاز قمم الجبال :

ـ يا قوم لقد أصبح أبرهة الأشرم وجيشه ، على مرمى القوس من أبواب مكة .

فى دار الندوة جلس كبار القوم يتشاورون فى أمر هذا الشر الوافد ، أما الجمهرة من العامة ، فقد وقفت تترقب فى لهفة صدور قرار الحرب ، فهم لم يعتادوا الخنوع أو الخوف مهما كان شأن عدوهم .

وبينما الجمع فى حمية النقاش ، إذا بغريب يبرز إليهم معلنا أنه رسول أبرهة إليهم ، صمت الحاضرون ، وران على الجمع سكون مترقب تقطعه همهمات غاضبة ، بينما استمر الغريب يشق طريقه غير عابئ بالوكزات ، ولا برذاذ البصاق الذى تناثر حوله فى تحد ، إلى أن دخل دار الندوة ثم صاح :

ـ من فيكم سيد القوم وحكيمهم ؟! .

أشاروا كلهم دون تردد إلى رجل مهيب الطلعة، وضاء الوجه، يتوسط مجلسهم وقالوا :

ـ هذا عبد المطلب بن هاشم صاحب الكلمة فينا .

اتجه الغريب إلى عبد المطلب، ثم انحنى محييا ، وهو يقول :

ـ إن الملك أرسلنى إليك لأبلغ قومك بأنه ليس فى حاجة إلى حربكم ، ولا سفك دمائكم، ولكنه أتى قاصدا هدم الكعبة وبعدها يخلى عنكم، ويرجع إلى ملكه، إن أنتم لم تعلنوا حربه، ولم تعترضوا سبيل جنده .

زمجرت الجموع مستنكرة غاضبة ، فكيف يطالبهم أبرهة بأن يسالموه ، ويقفوا متفرجين عليه وهو يهدم البيت الحرام رمز عزتهم ، ومصدر فخارهم بين القبائل ، وموطن ألهتهم التى يعبدون ؟! .

ولكن إشارة من يد عبد المطلب أسكتتهم، ثم أشار على رسول أبرهة بأن يستريح بدار الضيافة، إلى أن يتشاور مع قومه فى الأمر .

وما إن اختفى الغريب، حتى قام عبد المطلب فى قومه خطيبا ، قائلا والصدق يجعل كلماته كالسهام، تنغرس فى هدفها فلا تغادره :

ـ ورب البيت إنا لآيسون من حرب أبرهة الأشرم، فلقد أتانا فى جند يزيدون عنا عددا وعدة ولقد استقدم معه فيلا إن وطئت قدمه رجلا أو إبلا صرعته وحطمت عظامه، ولقد سبقنا واستنفر ذا نفر فرسان قومه لحربه حين مر بديارهم ، لكن أبرهة هزمهم ، وغلب أبطالهم ، ثم قاتله نفيل بن حبيب الخثعمى وقومه فدمر ديارهم، وسبى نساءهم، ويتم عيالهم ، وإنتهب أموالهم و أقواتهم، وإنى أرى أن نسالمه مادام وقد بدأنا هو بالسلام ، أما البيت فورب البيت ما قصده ظالم بانتهاك إلا وقصمه الله، هذا ما أرى، فانظروا ماذا أنتم فاعلين؟

لم يكن هناك رأى يرى بعد ما قال عبد المطلب ، ولهذا أجابوه والمرارة تجعل الكلمات تتعثر فى حلوقهم، وتخرج على شفاههم مرتعدة بالهزيمة والانكسار :

ـ افعل ما ترى، ونحن لك تبعا .

أمر عبد المطلب بإحضار رسول أبرهة، وحين مثل بين يديه قال له :

ـ أبلغ مليكك أننا سنمتنع عن قتاله مادام حافظ جنده على حرمة ديارنا .

.. استمع الرسول إلى قرار عبد المطلب وعيناه تلمعان بالانتصار، لكنه لم يغادرهم منصرفا، بل قال :

ـ لقد أمرنى الملك أن أصحب سيد القوم إليه إذا ما أجبتم مطلبه .

أجابه عبد المطلب دون تردد .

ـ وإنى ذاهب معك إليه فلى عنده مساءلة .

كانت استجابة عبد المطلب لدعوة أبرهة ، مفاجأة زلزلت وجدان القوم ، فإن ما تناقلته القبائل من روايات عن أبرهة يؤكد خيانته للعهود ، ونقضه للمواثيق : فلماذا لا يكون طلبه مكرا بهم ، ليسلبهم القائد فتسهل عليه السيطرة عليهم واجتياح ديارهم ؟!.

.. وكما عرفوا عن عدوهم مكره وخداعه ، فهم يعرفون صلابة عبد المطلب وجسارته ، وإصراره على تنفيذ ما عاهد عليه ، منذ قاتلهم جميعا لكى يحفر بئر زمزم

وفاء للرؤيا التى رأى ، وللهاتف الذى هتف به أن أحفر زمزم التى طمرت فيتدفق منها الماء سقاية لحجيج بيت الله .

كانوا يقاتلونه ليمنعوه خوفا من غضب أصنامهم التى يعبدون ، فلقد كان يحفر تحت أقدامها ، وضربات معوله تهز الأوثان هزا حتى لتوشك أن تنكفئ ، لكنه أصر ودافعهم وضاربهم ، وهو ليس له من الأبناء غير ابن واحد هو الحارث ، ولذا فلقد صاح فيهم زاجرا :

ـ أولو كان لى من الأبناء كثرة ، أو كنتم تقاتلوننى فيما أنا صانع ؟.. والله إنى لناذر أن أقدم للآلهة أحد أبنائى قربانا ، لو رزقت بعشرة ذكور يحموننى ، ويدفعون عنى أذى سفهاء مكة .

وحين تسامعت قريش بما قال عبد المطلب ، انفضوا عنه لا يقاتلونه ، وقد أخذهم الخزى كل مأخذ ، وتقاسموا ألا يقاتلوا عبد المطلب أبدا .

وحفرت زمزم ، وتفجر ماؤها، وتأكدت قريش من رجاحة عقل عبد المطلب وشفافية روحه ؛ ومنذ ذاك الحادث وهم لا ينازعونه فى رأى ، ولا يخالفونه فى مشورة .

إذن فليكلوا أمرهم لرب البيت ، وليلجئوا إلى أصنامهم يسألونها العون ليعود إليهم عبد المطلب سالما ، وإلا فأى عار ذاك الذى سيلاحقهم لو غدر به الحبشى ، وهم جلوس فى ديارهم لم يحملوا سيفا و لم يرموا نبلا ؟!.

- 3 -

انطلق عبد المطلب على فرسه الأشهب مع رسول أبرهة حتى وصلا إلى خيمة الملك ، وقد عسكر حولها الجند يسمرون وقد تحوطوا النار يطهون .

كان الوقت مساء ، والهواء ثقيل خانق ، والسماء سوداء مكفهرة جهمة ، حالها كحال الشمس بالنهار : غريب .. غريب ، لم تعتده عينا عبد المطلب ، وها هى ذى النجوم خابية أنوارها ، وقد دنت من الأرض وتدلت ، حتى لتخال يدك واصلة إليها ممسكة بها .

قال عبد المطلب لنفسه : ورب البيت إن هذه السماء لتبيتن لأمر جلل .

وقال رسول أبرهة :

- سأستأذن لك الملك .

صاح أبرهة ونبرة النصر تلون صوته بالكبر :

- أدخلوا الهاشمى صاحب زمزم ومطعم الحجيج .

. . وحين أطل وجه عبد المطلب من باب الخيمة ، انتابت أبرهة خشية عظيمة لتلك المهابة التى طالعته ، وذاك النور الذى يضئ الوجه بالطمأنينة ، فلا قلق يبدو تأثرا من رؤية لذاك الحشد الحاشد من الجند ، ولا انبهار بهذا الترف والبذخ الذى يملأ الخيمة ، بل هناك سكينة لم يشهد مثلها من قبل ، حتى فى وجوه القسس والرهبان .

نهض أبرهة مضطربا لا يدرى ما هو فاعل ؟..

: هل تراه سيدعو الهاشمى لارتقاء العرش والجلوس إلى جواره ، فيقال : لقد جلس القرشى على عرش اليمن ، وآه له من غضبة سيده إمبراطور الحبشة حين يسمع بهذا ، وهو باليقين سامعه ، فلسيده فى كل ركن أذن تسمع ، وفى كل مخدع عين ترى .

: أم هو مجلسه تحت قدميه كما يجلس غيره ؟ .

: لا.. لا.. محال أن يفعل هذا بعبد المطلب .

هكذا أخذ أبرهة يردد لنفسه رافضا الفكرة ، رغم كونه يتمنى أن يفعل هذا إذلالا لمن دنس رجل من قومه حرمة كنيسته ؛ والفرصة سانحة ، وهو مالك للأمر ، لكنه غير مستطيع .

: كيف ؟! .

: لا يدرى .

فها هو ذا يجلس على الأرض ، بينما هو يريد أن يكون جالسا هناك بأعلى ، ثم ها هو ذا يشير إلى عبد المطلب ليقترب ويجلس إلى جانبه ، بينما هو يريد أن يبعده ، ولا يدنيه .

أسرع المترجم يقف خلفهما ، قال أبرهة :

- سل الهاشمى بماذا يأمر فيطاع ؟ .

ذهل المترجم ، ظن أن سمعه قد خانه ، فلم يقل مثلما قال مليكه ، بل قال لعبد المطلب :

- مولاى يسأل إن كانت لك حاجة عنده فيجيبك إليها .

قال عبد المطلب :

ـ قل لمولاك إن جنده قد نالوا مائتين من إبلى بالأمس ، فليردها على .
تغير لون أبرهة ، وبدت الدهشة على وجهه الذى ازداد سوادا ، حين سمع من المترجم ما قاله عبد المطلب ، سكت قليلا ثم قال :
ـ كنت قد أكبرتك حين رأيتك ، وظننتك ستتوسل إلى ألا أهدم البيت ، فإذا أنت تطلب أن أرد إليك مائتين من الإبل !!.
أجابه عبد المطلب فى هدوء :
ـ لأننى أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .
تزلزل كيان أبرهة : ما هذا الذى يسمع ، ما بال هذا الإعرابى لا يزال يصيبنى بالرهبة والخوف ، ويفزعنى بسكينته ورباطة جأشه ، إنه يقابل إقدامى على هدم البيت بهدوء ، وأنا من أصابه الهياج واجتاحه الغضب ، وجيش الجيوش ، وقطع الفيافى والقفار ، ووصل الليل بالنهار ، لمجرد أنى سمعت بأن إعرابيا قضى حاجته فى كنيستى التى بنيتها باليمن تقربا لمولاى إمبراطور الحبشة ، وطلبا لرضاه، وإعلاء لشأن الصليب، وإبهارا للعرب حتى ينفضوا عن الحج إلى الكعبة ، ليحجوا إلى كنيستى التى بنيتها سامقة تكاد تناطح السحاب حين علمت بأن الكعبة التى يحجون إليها لا يرتفع بناؤها عن بيوتهم و خيامهم إلا أشبارا ، وزينت جدرها باللؤلؤ والمرجان ، وجعلت سقفها من ماء الذهب والفضة ، وصلبانها من الذهب والياقوت ، بينما هم يحيطون كعبتهم بتماثيل يعبدونها يصنعونها من الحجار الطين ، بل ومن الرطب والعسل ـ ورغم هذا جميعه ـ لم يهجروا كعبتهم ، ولم يغيروا عادتهم ، بل اجترءوا على كنيستى استخفافا وتحقيرا ، فلم يكتفوا بهجرها ، بل لقد فعل أحدهم فعلته التى فعل ، فلم يعد أمامى إلا حد السيف أجتث به رمزهم ومزارهم ، ثم ها هو ذا رئيسهم لا يطلب منى غير بضع من النوق ؛ فيالهم من قوم أمرهم عجب من عجب !!.
طال انتظار المترجم لرد سيده على مساءلة عبد المطلب ، فأعاد السؤال على مولاه ؛ انتبه أبرهة من استغراقه فى دوامة الأفكار ، قال فى نبرة حاول أن يغلفها بالغطرسة :
ـ ردوا إليه إبله .
ثم استطرد فى غيظ وضيق :
ـ أكد عليه أيها الترجمان ، أننى مع شروق الشمس آت إلى قريتهم ، ومدمر بيتهم بضربة واحدة من قدم فيل مولاى الإمبراطور ، وعليهم أن يلزموا دورهم مبتعدين عن طريق جندى .
ثم نهض مستديرا يصعد سلم العرش ، صارخا فى حراسه :
ـ أروا الأعرابى الفيل .
خرج عبد المطلب إلى معسكر الجند ، فى همة من أجيبت حاجته ، ثم هو يرغب فى مشاهدة هذا الفيل الذى تتناقل عنه الإعراب قصصا تفوق الخيال ، كما وأنه لم ير فى حياته فيلا ، فحين قال ما قال لقومه كان ناقلا عن ما جاءه من أخبار ، وها هو ذا قد قدر له أن يرى ، ويا هول ما يرى : فكأنما هو جبل ، وحين تحرك ، مادت الأرض تحت قدميه ، وحين صرخ أصم أذنيه .
غادر عبد المطلب مكان الفيل عائدا إلى قومه ، يسوق إبله ، وقد أصابه هم عظيم : فماذا هو مستطيع أمام هذا البلاء ؟!.
أطلق عبد المطلب الإبل فى ساحة الكعبة ، وأعلن أنه واهبها لله إذا نجى البيت من مكيدة الحبشى ، ثم تعلق بحلقة باب الكعبة ، وراح يدعو وقد انسابت دموعه تضمخ لحيته ، وحوله جموع من القرشيين يرددون وراءه ويبكون لبكائه :
ـ يا رب لا نرجو لهم سواك ، فامنعهم يا رب أن يخربوا قراك ، فعدو البيت يا رب من عاداك .
وظل عبد المطلب على حاله ، حتى أشفق عليه من حوله ، وتوسلوا إليه أن يرحم شيبته ، ويكف عن تعلقه بالباب وعن البكاء ، فاستجاب لهم ، واتجه إلى بطون قريش ينصحهم بالفرار إلى الجبال .

أوقدت المشاعل وتصايح القوم ، وجرت الأمهات لهفى على أطفالهن يوقظونهم ويحملونهم خارج الدور ، بينما أخذ الرجال يسوقون الدواب وقد حملوها بكل غال ونفيس متجهين إلى الجبال يتسلقونها ، ويتدافعون إلى شعابها .

كان المنظر حزينا يدمى القلوب ..

قوم مقهورون يهجرون ديارهم وسط الظلمات ، ويلجون مسارب الجبال ، وهم لا يعلمون ماذا ينتظرهم فيها ، وما أكثر ما تخفيه بين سراديبها وصخورها من أهوال ومخاطر ، فهى مرتع للحيوانات المفترسة ، وللزواحف الخطرة من ثعابين وحيات ، بينما هم يرون بالكاد ما هو تحت أقدامهم ، وقد تصاعدت أنات المرضى والمسنين ، ونداءات الأمهات على صغارهن الذين علا بكاؤهم من شدة الفزع .

وحين اطمأن الرجال على أسرهم ، التفت أبناء عبد المطلب يبحثون عن أبيهم ، فلم يجدوه ، فتدافعوا ومعهم أقوام منحدرين إلى حيث يوقنون بوجوده .

.. فى الكعبة كان واقفا يبكى ، وقد رفع أكف الضراعة إلى السماء ، اقتربوا منه ، وقالوا فى رجاء :

- هلم معنا .

رد عليهم فى حسم :

- لن أغادر الكعبة ، سأبقى منتظرا قضاء ربى ، ولا أقطع الأمل فى رحمته.

توسلوا إليه قائلين :

- من أجل أبنائك تعال معنا إلى الجبال ، فمكة لن تكون آمنة ، فأبرهة كاره لقريتنا ، وجنده شرهين للدماء ، وفيله يصبح مهووسا ملووسا ، إذا ما غرسوا الحراب فى جلده ، فهو يطيح بقدميه وخرطومه يمنة ويسرة ، يدمر كل ما يقع فى طريقه ، حتى وإن دمر نفسه .

أجابهم لينهى كل حوار :

- أبنائى أبناؤكم ، خذوهم على ما تأخذون عليه عيالكم .

ثم استدار مواجها الكعبة ، وراح يجأر بالدعاء لله ، لا يأبه بشىء .

انصرف الرجال عائدين إلى أسرهم ، وهم فى حال من عدم الرضى لانصرافهم عنه ، فهم لم يعتادوا من أنفسهم مثل هذا التصرف عند نشوب الشدائد ، واستفحال الأزمات ، فهى تجعلهم يزدادون قربا وتماسكا وتوحدا ، لكن ماذا تراهم فاعلين ، والوقت يمر ونذير الشؤم آت مع أول خيوط النهار ؟!.

كان عبد الله هو آخر من تبعهم ، فترك ساحة الكعبة ، وإن ظل قلبه معلقا بأبي فهو أصغر الأبناء : قريب إلى نفسه ، محبب إليه ؛ وبنفس درجة حب الأب ، كان مكنون القلب عند الابن ، و لذلك كان عبد الله منقبض الفؤاد ، كسيف البال ، فهو لا يستطيع أن يبقى مع الحبيب كما يتمنى ، لأنه لن يسمح له بالبقاء ، بل هو سيزجره ويصرفه ، كما أنه لو ترك زوجته آمنة وبقى ، فمن يحقق لها الأمن وهى حامل فى ابنهما الأول ، فلو سبا أبرهة وجنده أى امرأة لصارت أمة يبيعونها ويبيعون عيالها ، والموت أهون من أن يحدث هذا لزوجه ، أو لابنه الذى لم يره بعد ، ويشتاق لرؤياه غاية الاشتياق .

وتتعثر خطوات عبد الله فى صخور الجبل فتدمى قدماه ، ففكره الشارد لا يجعله منتبها للأخطار المحيطة به ، ويصل عبد الله إلى حيث عسكر القوم ؛ وتتلقفه آمنة فى لهفة بعد أن أقلقها تخلفه عن أقرانه ، وتراه شاردا فتسأله :

- فيم تفكر يا أبو الفتى ؟! .

فيجيبها :

- ورب البيت ، إن الموت لأهون على مما طاف بفكرى .

وتدرك آمنة بفطرتها أنه كان قلقا عليها ، وعلى الجنين الذى يتحرك هونا فى أحشائها وتغمرها حركته بسعادة وطمأنينة ، فتنحنى عليه هامسة :

ـ والله يا عبد الله إننا لفى حمى الله ، ولقد بشرت فى منامى بأن ابننا سيكون له شأن عظيم ، وسوف يتفجر لمولده النور حتى يعم قصور بصرى بالشام ، فأبشر يا ابن عم ، ولا تقلق عليه ، فإن الله حافظه من كل سوء .

ويضىء وجه عبد الله بالبشر ، فقد نزل كلام آمنة على قلبه بردا وسلاما .

ـ 5 ـ

انصرم الليل ..

ومكة هامدة كسابق عهدها منذ هجرها أهلها .

فى حب عميق ، جلس الإنسان الوحيد الذي بقى بمكة ، دامع العينين ينظر إلي ذلك البناء الحبيب الذي تقاتل العرب من أجل أن يكون لهم شرف خدمته وخدمة زواره .

.. مبني مربع بسيط لا زخارف فيه ولا زينة ، من يراه بداية يعجب من أمر ذلك الحب والتعلق الذى يربط قلوب العرب به ، ولكن من يراه مرارا ، سيكون أكثر منهم تعلقا وتشوقا لزيارته ، والطواف به : مهللا ملبيا وداعيا رب البيت ، متوسلا إليه بما يريد قضاءه .

لقد ظل هذا حال البيت منذ كانت الحياة بخلق آدم عليه السلام ، ويقال إن البيت كان موجودا أيضا قبل أن يخلق الله آدم من طين ، وأن البيت كان ياقوتة حمراء ، وكانت الملائكة ـ ومازالت ـ تطوف حوله مسبحة لله ليل نهار ، فى خشوع العابدين العارفين بقدر الخالق .

.. وحين رفعت الياقوتة من الأرض ، بقيت قواعد البيت فأعاد جد العرب الأكبر إبراهيم عليه السلام بناءه من حجارة الجبال ، وعاونه ابنه إسماعيل ، الذى فجر له الله ماء زمزم حين كان طفلا ، رحمة به وبأمه ، حين تركهما إبراهيم بصحراء مكة ، هذه البئر التى رأيت فى منامك أنك تقوم بإعادة حفرها ، بعد أن طمرتها السنوات ، وعندما قصصت رؤياك على أهل مكة ، سخروا منك ، واستهزءوا بك، ولكنك أصررت على حفرها تنفيذا للأمر الذى أمرت به فى منامك ، وحين تكشف ما طمر بها من دروع وذهب أرادوا أن يشاركوك الحفر، ولكنك رفضت أن ينال ذلك الشرف أحد غيرك ، ورحت تحفر ، ولا يصدهم ، ولا يردهم عنك سوى ابنك الحارث ، هنا أقسمت : لئن رزقك الله بعشرة من الأبناء ليذودوا عنك ، ويردوا أذى قريش فإنك ذابح أحدهم قربانا لله .

ومرت السنون ..

ومن الله عليك بالأبناء العشرة ..

وكان عليك الوفاء بالنذر ..

وليكون العدل هو الشرعة ، قبلت الاحتكام إلى هبل ..

وضربت القداح و بها أسماء أبناؤك العشرة ..

وحتى يكون الابتلاء شديدا ، خرجت القداح على اسم : عبد الله .

وكان الوفاء صعبا ..

وكان الحنث أصعب ..

وما أشد الشبه بما حدث لجدك إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، وما هو حادث لك يا عبد المطلب ، حين أخذت عبد الله بيد ، وباليد الأخرى السكين ، وها أنت ذا تتجه بعبد الله إلى حيث تقدم قريش قرابينها و تذبحها تحت قدمى : إساف ونائلة ، وأبناؤك حولك يبكون .

وانتشر الخبر بسرعة انتشار الرمال حين تحركها الزوابع بين من كانوا بالكعبة ، ثم سرى بسرعة الريح فى أنحاء مكة ، فالتف من حولك الناس ، وتحوطوا بك ، فأصبحت تشق طريقك بصعوبة ، وأبناؤك لا يذودون عنك ، ولا يقرونك على ما تريد فعله بأخيهم .

وحين تمكنت من الوصول إلى أسفل الصنمين ، وأنخت عبد الله ، ووضعت خده فوق الثرى ، وارتفعت السكين يلمع نصلها تحت أشعة الشمس الحارقة ؛ إذا بابنك الحارث يلتاث ويجأر بالصراخ ، ثم يجذب أخاه من تحت ساقك ، فيخمش التراب خده ويسيل الدم على وجه عبد الله الطيب ، ويذوب قلبك ألما وحزنا ..

: ألا يرحموك من محاولة الذبح ، فمن أدراهم أنك لست الذابح ، ولكنك أنت الذبيح ؟! .

ورغم آلام نفسك الشديدة ، تصر على معاودة الإمساك بعبد الله مرة أخرى لتذبحه؛ وفى هذه المرة لم يكن أولادك فقط هم مانعوك ، ولكن قريشا كلها أصبحت مانعتك حتى لا تستن سنة تروع مكة ومن فيها ، فيباح للرجل ذبح أولاده الذكور قرابين .

: أفلا يكفيك ويكفيهم أنكم تئدون البنات ، وتدفنوهن أحياء خشية العار والفاقة ؟! .

وتنادى الجميع بالاحتكام إلى كاهنة من طيبة ، تستطيع أن تفتى بالرأى فى مثل هذه المواقف ، وقد كان ، وزحفت الجموع إلى حافة الجبل حيث تقيم الكاهنة ، وحين عرض الأمر عليها ، قالت :

ـ كم فداء الرجل فيكم ؟ .

قالوا :

ـ عشرة من الإبل .

قالت :

ـ إذا فاحتكموا إلى القداح ، وزيدوا الفداء حتى تخرج الأسهم على الإبل .

وتنادى القرشيون :

ـ الفداء .. الفداء .

وبدأ الفداء بعشرة من الإبل ، وخرجت القداح على عبد الله ، وأخذ رقم الفداء يكبر ويكبر ، حتى وصل إلى مائة من الإبل ، عندئذ خرجت القداح على الإبل ، فذبحت جميعها فى ساحة الكعبة ، وتركت لمن يريد أن يأكل من : إنسان ، أو وحش وطير .

كل هذه الأحداث جرت بهذا المكان ..

.. وكل ما مضى من العمر ، قضيت أكثره بهذا الركن من الكعبة ، فى خدمة البيت ، وخدمة زوار البيت ، تقدم الطعام والشراب والكساء ، لمن يريد ، فإن إكرام ضيوف الرحمن واجب ، بل هو شرف لا يطاوله شرف آخر .

فهذا بيت الله ، وهو لله ..

أما هذا الحبشى الذى رام هدم البيت غيرة وحقدا ، ليحج العرب إلى كنيسته التى بناها بتسخير الناس ، وجبرهم على البناء تحت نار البطش والخوف ، فلقد بناها تفاخرا بنفسه ، وتقربا لمليكه ؛ فهو بناها لإمبراطوره ، ولم يبنها لله ؛ أما هذا البيت فمنذ وجد وهو لله .

لقد دعا جدنا الأكبر إبراهيم ، وهو يرفع القواعد من البيت : أن رب اجعل هذا البلد آمنا ، وارزق أهله من الثمرات ، واجعل يا رب أفئدة من الناس تهوى قلوبها وتحن وتئن شوقا وحنينا إليه ، فتسعى ملهوفة لزيارته ، تبحث حوله عن التطهر والطمأنينة .

وحقق الله الدعاء والرجاء ..

وتعلقت القلوب بالبيت ، وبقيت على تعلقها لا تحيد ، ولم تصرفهم الطواغيت أو الأصنام عنه : فهم يبدءون طائفين به ، ثم يذهبون إلى أصنامهم ، وقبل أن يغادروا مكة يعاودون الطواف مستأذنين قبيل الرحيل ؛ فالبيت هو البدء وهو الانتهاء .

: اللهم زد بيتك تكريما ومعزة وفخرا .

: اللهم أنزل بأبرهة غضبك وسخطك .

: اللهم إن البيت بيتك والحرم حرمك .

: اللهم لا تمكن من بيتك ظالما أو جبارا ، واجعله اللهم آمنا وأمانا للناس .

- 6 -

أشرقت الشمس بنور ربها ..

وعبد المطلب ماكث بالكعبة ، لم يغادر الحجر، ولم تنم له عين ، ولم يتوقف لسانه عن طلب الغوث من الله، ولم ينتبه إلى شروق الشمس ، إلا حين تناهت إلى سمعه أصوات أعجمية آتية من بعد ليس بالبعيد ، كانت الأصوات مختلطة بصوت صراخ ثاقب ، ليس بحال صراخ إنسان أو حيوان ، فهو صراخ تقشعر منه الأبدان ، وتكتئب له النفوس ، صراخ شؤم ، ونذير خراب .

رفع عبد المطلب رأسه إلى السماء ينظر ، وقد حجبت الشمس فجأة ، وكادت الظلمة أن تحل فى غير ميعاد ، ولكن سرعان ما تبين له السبب ، فلقد اندفعت أسراب من طير سود ، فى أفواج متلاحمة يتقدمها قائد فى صدره حمرة كأنها الدم ، طوفت فوق مكة .

وخر عبد المطلب ساجدا ينتحب ، فلم تحتمل أذناه صراخ الطيور الغاضب ، ولم تحتمل نفسه المرهفة ما جال بخاطره من أنه قد جاء أهل مكة الهلاك ، لتقاعسهم عن حرب أبرهة دفاعا عن بيت الله .

ولكن الطيور لم تبق فوق مكة ، بل اتجهت إلى حيث جيش أبرهة ، وبدأ عصف الرياح يشتد ، ويشتد ، وأصبح وقوع بلاء عظيم ، أمر لا مفر منه .

وهدأت نفس عبد المطلب ، وهرول إلى باب الكعبة ، يتعلق بالأستار ، ويجأر مستغيثا بالله :

- اللهم اجعل غضبك على من عاداك ، فنحن رب نعيش فى ظل حماك .

- 7 -

حمل العبيد بقايا طعام الإفطار من أمام أبرهة ، لكنهم تساقطوا فجأة حين وصلوا إلى باب الخيمة ، لقد فاجأتهم ريح عاصف ، اعتذر كبير الخدم للملك ، وأسرع إلى أتباعه يضربهم بالسوط ، ويستحثهم على الوقوف ، والعبيد يكافحون الريح ما وسعهم ، ويلتقطون الأوانى من فوق الأرض فى سرعة باحثين عن ملاذ يبعدهم عن غضبة الملك .

اندفع قائد الجند يعلن للملك ، وهو فى قمة الخوف والعجب:

- إن الفيل لا يريد أن يتحرك من مكانه يا مولاى !! .

صاح أبرهة فى حنق :

- اضربوه .

قال قائد الجند فى كمد :

- ضربناه يا مولاى فنهض يجرى مبتعدا عن مكة .

زمجر أبرهة ، وهو يستعيد الوجه الهادئ للهاشمى ، وصاح قائلا :

- سخنوا الرماح وأحرقوا بها جلده .

طحن قائد الجند ضروسه من الغيظ ، وتمتم :

- فعلنا به ما هو أشد وأنكى ، ولكنه انكفأ على وجهه لا يريد حراكا .

اشتد صوت الصراخ بالخارج ، بعد أن كان يفد ضعيفا ، استدار الملك يصعد هودجه معلنا بدء التحرك لاجتياح مكة ، وتدمير البيت ، وهو يتساءل غاضبا :

- ما هذا الصراخ المزعج يا قائد الجند ؟! .

- إنه صراخ الفيل يا مولاى .

- ليس الفيل وحده الذى يصرخ ، فأنا أسمع الجند أيضا يصرخون ؟! .. وما بالك أنت أيضا تصرخ يا قائد الجند ؟! .

لم يرد قائد الجند على مليكه، خرق كل الأعراف، ولم يرد، فلقد اخترق حجر أسود مسوم جدار رأسه فقتله.

كانت الحجارة تتساقط من السماء ، ترمى بها الطير الأبابيل فتخترق كل ما يقف فى طريقها ، وكان الجند يفرون متخبطين فى كل الاتجاهات يبحثون عن ملاذ ، أو سبيل إلى فرار ، ولكن أين المفر من قضاء الله ؟ .

.. لحظات .
ثم أصبح الثعبان الضخم ، أشلاء مبعثرة فوق رمال الصحراء كعصف مأكول .

- 8 -

كان عبد المطلب ما زال قابعا أمام باب الكعبة ينظر إلى السماء ، وقد اغتسلت شعيرات ذقنه من كثرة ما سال عليها من دمع ، وإن كان قد غادره الروع القديم ، فلقد تيقن من كون الطير لن تعود إلى قريتهم ، وإن ظل يعجب لتواصل صراخها ولارتفاعها ثم انقضاضها على الصحراء حول مكة ؛ وزاد عجبه حين لحظ أن أبرهة لم يفد إلى مكة ، ولم يبدو على مدى البصر أثر لجنده ، فهل تراه عدل عن جنونه وعاد إلى دياره ، ولم لا : فها هو ذا السكون قد عم ، وها هى ذى الشمس قد عادت تشرق فى زهو من جديد .
استدار عبد المطلب يخطو متجها حيث ربط فرسه ، فركبها ، ثم اندفع بها إلى حيث عسكر بالأمس جند الحبشى ، وهو واثق من كون غوث الله قد حل ؛ وكأن ريحا قد نقلته فى لحظات معدودات ، فلقد وجد نفسه وسط مشهد مهول : لقد تحول معسكر الأمس إلى نثار مبعثرة فوق الرمال ، أما الجند فلقد أصبحوا كأعجاز نخل خاوية ، وتناثرت جثثهم على مدى اتساع الصحراء .
أخذ ينظر مشدوها ، فلو أنه تخيل انتقاما يحل بأعداء بيت الله ، ما وصل به خياله مهما بلغ به الشطط ، إلى هذه الصورة التى يراها رأى العين ، وقد حلت بجند أبرهة ؛ وحين استعاد نفسه من شدة الهول الذى رأى ، صاح مكبرا مهللا ، ثم عاد ينهب الأرض بفرسه نهبا ، ليحمل البشرى إلى من لم يدركوا قوله حين قال : إن للبيت ربا يحميه .
صعد عبد المطلب ذرا جبل حراء وراح يجأر بالبشرى ، والجبال تؤوب معه :
- يا أهل مكة عودوا إلى دياركم لقد أتم الله نصره ، وأهلك أبرهة وجنده ، وبيت الله آمن ، وأنتم آمنون بأمنه.
انحدر أهل مكة من فوق الجبال والتلال يتكفأون ، وقد ذبلت جفونهم وتقرحت نتيجة ليل طويل قضوه ، لم تغمض لهم فيه عين ، وهو ما لم تخفه صيحات الفرحة والتهليل التى أطلقوها .
وما إن عادت الدور إلى سابق عهدها ، حتى سارع أهلها بهجرها ثانية ، ولكن ياله من حال غير الحال ؛ لقد كانوا فى هجرتهم الأولى منكسرين حزانى يتعثر بهم الخطو ، أما فى هجرتهم الآن فهم يلغطون ويهمون ، بل يتسابقون إلى الأرض التى أعمل الله فيها القتل بجند أبرهة ، وسبحان الله العلى القدير : هاهم أولاء أهل مكة الذين فروا ونأوا عن القتال ، يغنمون جند الغزو .
عبد الله بن عبد المطلب ، هو وحده الذى لم يندفع مع الذين تدافعوا يتقاتلون على غنم ما تناثر فوق الرمال من سلاح ومال وملبس ، و كان هذا أمرا معتادا منه ، فهذا حاله دائما منذ الفداء ، فهو دائم الشرود ، راغب عن الدنيا ومتاعها ؛ لذا راح أقرانه ينادون عليه ، قائلين :
- هلم عبد الله لتنال لوليدك مغنما .
ولكنه لم يكن منتبها لندائهم ، فلقد كان فكره مشغولا بسؤال لم تنتبه قريش إليه ، قفز يؤرق باله : كيف ستدفن قريش كل هذه الجثث قبل أن يدركها العفن ، فتنشر الأوبئة والبلاء ليفتك بهم ؟.
وتمزق فؤاد عبد الله خوفا على من يسكن بطن زوجه ، فتأوه زافر : وا طفلاه .
وكأنما تجاوبت السماء لزفرته ، فلقد زأرت الريح ونفرت ، وهاج البحر البعيد هياجا عظيما ، حتى أصبح زئير الموج يصل إلى آذانهم ؛ و تصايح الرعاة من فوق قمم الجبال محذرين :

ـ الطوفان .. الطوفان .

ـ 9 ـ

أصاب القوم خوف شديد ، حين وصل إلى آذانهم صوت النذير مختلطا بزئير البحر ، فاندفعوا يهربون متدافعين بما غنموا ، لائذين بديارهم ، بل لقد داس بعضهم بعضهم بعضا ، وهم يتصايحون :
ـ النجاة .. النجاة .

وفى سرعة البرق خلت الصحراء من كل تلك الآلاف المتصايحة ، وران عليها صمت عظيم ، صمت البشر حين تكاد أنفاسهم أن تتوقف ترقبا لهول لا يستطيعون له دفعا ، وقد أحاط بهم من كل جانب ؛ والسؤال الملح لا ينفك يطرق بالعنف عقولهم :
.. أتراه الطوفان سيهلكهم كما أهلك قوم نوح ؟! .

أسرع الرجال إلى دار الندوة ، يلتمسون عبد المطلب فلم يجدوه ، وعثروا به متعلقا بباب الكعبة ، يطلب رحمة الله وعفوه ، تركوه حتى انتهى من دعائه ثم التفوا حوله متصايحين :
ـ يا عبد المطلب ، لقد منعتنا عن حرب أبرهة .
ـ وهل كانت لكم القدرة على حربه ؟ .
ـ كنا سنناوشه ، نكر عليه و نفر .
ـ ثم ماذا ؟! .
ـ ينزل عليه غضب السماء فنتفاخر بهزيمته بين العرب .
ـ ومن أدراكم بأن الله كان سيرسل عليه طيرا أبابيل إذا ما كررتم عليه وفررتم ؛ هل كنتم ستنالون الفخار ، أو الهزيمة والعار ؟! .
ـ ولكن رب البيت غاضب علينا لعدم حربنا آبرهة ، وها هو ذا قد أرسل علينا الطوفان ليهدم بيوتنا ، وليدمر قريتنا .
ـ يا قوم ثوبوا إلى رشدكم والتزموا دوركم ، فلو كان ما سيحيق بنا الطوفان لهلكنا من لحظتنا ، كما أهلك قوم نوح ، وكما أهلك فرعون وجنوده .
.. ولم يكن أمامهم إلا أن ينصرفوا عنه .
فماذا تراهم فاعلين ؟! .
وماذا يملكون غير الترقب والانتظار ؟ .

ـ 10 ـ

دون نوم ..
ولليلة الثانية ..
عاش أهل مكة يتسمعون أصوات الحراس الذين بثوهم فوق كل مرتفع ، يرقبون حركة الماء لينبهوهم ليفروا إلى رؤوس الجبال قبل أن يدركهم الماء فيغرقهم .
ظلت الرياح تزمجر ، وعواء الموج يزداد اقترابا من آذانهم ، لكن الحراس لم ينبهوا إلى إحداق الخطر بهم ، فلعله الوهم يجسم مخاوفهم ، ويوقع الرعب فى قلوبهم .
مع إشراقة الفجر ..
هدأت الرياح ، ثم همدت ، ولم يعد يسمع إلا صوت غثاء الغنم والإبل ، ثم بدأت الديكة صياحها المعتاد مع تساقط حبات المطر .
.. وحلت السكينة بالنفوس .
.. وانهارت الأجساد المنهكة تبحث عن نوم مطمئن طال الشوق إليه ، أما الرمال فقد عادت إلى صفرتها واستوائها بعد أن جرفت الأمواج فى عودتها جثث الموتى من جند أبرهة لتدفن فى قاع البحر ، بينما استمرت السماء تبج المطر بجا ، فكأنما الصحراء تتطهر من دنس أعداء بيت الله .

.. وأوفى عبد المطلب بما عاهد عليه ، ونحر الإبل التى استعادها من الأشرم ، وتركها مباحة لكل محتاج للحومها أو لجلودها يأخذ منها ما شاء حين يشاء .
.. وفى شموخ ، كانت الكعبة تستقبل الطائفين والعاكفين ، وقد زاد قدرها وسمت منزلتها ، وظل عبد المطلب لا يمل مرددا لكل من يفد من الحجيج :
ـ ألم أقل لكم إن للبيت ربا يحميه ، وأنه لن يناله ظالم بظلم ، ولا معتد بإثم .
وكانت آمنة زوجة عبد الله لا تنى تتلمس جنينها فى حب شديد ، وتقول لأبيه فى يقين كامل :
ـ ورب البيت إن كل هذه المعجزات التى تحدث لتمهد للرؤيا التى رأيتها ، ولكرامة ابننا الذى ستنير لمولده قصور بصرى .
.. أما القسيسون والرهبان فلقد رأوا فيما حدث البشارة الأولى لقرب الميلاد العظيم لأحمد الذى هو مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل ، وأضمروها نارا تأكل قلوبهم حقدا وغيرة ، ولم يعلنوها ، بعد أن تبين لهم أن وفوده سيكون من مكة .

.. وعن أبرهة فيروى التاريخ أن الطاعون قد أصابه وهو فى طريق عودته ، وأن لحمه كان يتساقط نتفا ، وعاش ما عاش من أيام منبوذا ، حتى من خدمه الذين كانوا يفرون منه ، خوفا من أن يصيبهم ما أصابه من بلاء ، إلى أن انفجر قلبه ، وانفرطت عظامه رميما .

الفصل الثانى :

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الضحى

اليتيم

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

ـ 1 ـ

.. لا يدرى عبد الله سببا لذلك الحزن الذى سكن قلبه ، منذ عرف بأنه مسافر إلى الشام فى تجارة لقومه .
فرغم هربه من قيظ مكة إلى صيف الشام الرطب ، ورغم المغنم المالى الذى سيعود عليه ، ورغم كون اختياره من بين آل هاشم لهذه الرحلة يعد شرفا كبيرا له : فهو لم يزل بعد على مشارف العشرين من عمره ، وهناك من اخوته وأبناء عمومته ، من هم أكبر منه سنا ، واعظم حنكة ، وأكثر منه استحقاقا لهذا الشرف ؛ ثم إن هذه الرحلة لها تميز خاص ، فهى أول رحلة تخرج من مكة إلى غيرها من القرى ، بعد هلاك أبرهة وجنده ، وهو أمر سوف تتساءل عنه الأقوام ، وتحيط أصحابه من القرشيين بما هم أهل له من الكرامة التى أظهرها الله فيهم .
لذا كان القرشيون يعرفون بأن وصول قافلتهم إلى الشام ، سوف يكون مثار اهتمام أهلها ، ويجعل أفرادها الأولى بالرعاية من دون كل قوافل الدنيا التى تفد إليهم .

وهكذا سيكون عبد الله وأقرانه محط الأنظار ، وهو ما يدفع بدفء الفخار فى الأوصال ، فيثير فيهم الحمية والإقبال على السفر ، ويهون عليهم من آلام البعاد عن الأهل .

.. ورغم معرفة عبد الله بهذا جميعه ، فإن المشاعر الحزينة ، كانت تغلف كل كيانه ، وتنثر الحزن والكآبة فى حنايا نفسه .

راح عبد الله يبحث فى أعماقه عن سبب هذا الشعور ، الذى يشذ به عمن حوله من مظاهر الفرح والحبور ؛ فلعله حزين لفراق زوجته آمنة وحنة العرس مازالت تضمخ كفيها ؟.. ولم لا يكون سبب ذلك هو فراقه للجنين الذى بدأ يتحرك فى بطنها ، وهو يغادره ولا يعرف له جنسا ولا كنية ، انه وليده الأول ، ويكفى أى أب أن يعرف بأنه سوف يرزق بالخلف فلا يتلقفه بين يديه ، ولا تكون عيناه أول من تحتضن ملامحه بين الجفنين ، لتنمو داخله لحظة السفر كل مشاعر الكره لهذا الرحيل ..

: ترى كيف ستكون ملامحه ؟..

: هل ستكون مثل ملامح أبيه ، أم ستكون كملامح أمه ؟!.

: ترى هل سيتحقق ما قالت به آمنة ، من أنه ستضىء لمقدمه قصور بصرى بالشام ، وهل سيرى هذا النور الذى سيغمر الكون وهو هناك ؟!.

: وا لهفتاه على صغيرى .

.. فاض الوجد بعبد الله ، فقال يوصى زوجه :

- يا آمنة أوصيك بوليدنا خيرا ، كونى له حبا ، وأرضعيه شجاعة وفخرا .

وقال لأبيه وهو يضمه إلى صدره مودعا :

- يا أبت أوصيك بوليدى خيرا ، كن له خير أب ، وخير معين على قدر ما سوف أغيب .

.. ثم أسرع عبد الله مبتعدا قبل أن تفيض عبراته .

تحركت قافلة الجمال إلى خارج مكة ، وكان القرشيون على عادتهم فى وداع قوافلهم ، قد تجمعوا رجالا ونساء ، أطفالا وشيوخا ، يهزجون ويتنادون .

وحين اختفت ملامح الأحبة مبتعدة ، حتى صارت خيالات ضبابية مبهمة بلا ملامح ولا تفاصيل ، كفت أصوات الدفوف عن الدوى ، والتصقت أكف الضاربين فوق جلدها ، وكأنها تتحسس جلد من رحلوا .

لحظات ، ولحظات من المتابعة ، ثم بدأت الأرجل تشعر بثقل الأجساد فوقها ، فتحرك الجمع عائدا إلى مكة بأحزان من انفصلت عنهم أكبادهم ، ليواجهوا المجهول الذى يتربص بمن فارقوا ، فالطريق إلى الشام شاق .. شاق ، والمخاطر فيه جمة : فهى إن لم تأت من عصابات القتل والنهب والسلب ، جاءت من وحوش الصحراء ، أو من الصحراء ذاتها برمالها المتحركة التى تبتلع من يلجها من إنسان أو حيوان ، أو من خداع مسالكها ، فإذا ما حادت قافلة عن الدرب هلكت.

توارت أشعة الشمس مسرعة ، وكأنها تؤكد أن الرحيل من سمات الحياة ، فها هى ذى خيوط النور تنسحب وتأفل ، لتترك خيوط الظلمة تفذ وتسيطر ، وما أقساها ظلمة الليل على النسوة اللائى فقدن الائتناس بغياب الولد أو الزوج ، فالنوم يمسى كافتراش شوك الصبار ، فيصير النوم على رمال الصحراء فى الهجير أهون منه بكثير .

كانت آمنة تعيش لحظات وحدتها ، تتأمل ذكريات رواجها من عبد الله ، وكيف جاء عبد المطلب سيد قريش يطلبها لابنه من أبيها ، وكيف أدخلت طلعة عبد الله من النظرة الأولى البهجة على قلبها ، ولما عرفت بأنه عبد الله المفتدى ، اشتعل قلبها حبا ، وامتلأت فخرا بأن تكون زوجا لأغلى شباب قريش وأعزهم : فمن من بين شبابها جميعا تم فداؤه بمائة من الإبل ، غير عبد الله ؟.. ومن من شباب قريش تنافست عليه بناتها ، ورفضهن جميعا ، بمن فيهن تلك اليهودية ذات الحسب والنسب ، والتى عرضت عليه أن تهبه مهرا مائتين من الإبل ليطأها ، غير عبد الله ؛ ثم أتاها هى ، وهى وحدها من دونهن جميعا ، وتزوجها ، وأودع فى أحشائها أغلى هدية ..

: ولكن ها هو ذا عبد الله قد بعد عنها ، وآه يا عبد الله من فراق الأحبة .
: ولكن لم اختـاروك أنت من بين شباب قريش ، وهم بالمئات ، ولم يختاروا غـيرك ؟.
.. هل يريدون منك أن تحكى فى الشام قصة الفداء ، أو يريدون أن تروى قصة اندحار أبرهة ؟!.
ولما فاض بآمنة الوجد ، قامت من جلستها متجهة إلى فراشها ، فلعل النوم مدركها برحمة الله ، وأثنـاء بحثها عن النوم راحت تتلمس ما ببطنها ، فلقد كانت تجد فى ذلك الجنين الذى حملته هونا عـلى هـون الأمن والراحة ، وقبل أن يستغرقها النوم ، تمتمت بمكنون قلبها ، فتنهدت قائلة :
ـ لهفى أنا على عودتك يا عبد الله .

ـ 2 ـ

كان عبد الله فى طريق عودته من الشام إلى مكة ، وقد ساد أفراد القافلة حال من الحبــور والفرحـة ، فلقد باعوا ما كانوا يحملونه للبيع ، وربحت تجارتهم ربحا وفيرا ، واشتروا ما طلـب مـنهم شراؤه ، مـما يحتاج إليه أهلهم بمكة لأنفسهم أو ليبيعوه لأهل اليمن فى رحلة الشتاء ، بـأرخص الأسـعار ، ولقـد تـم هذا فى أيام قليلات ، هى أقل بكثير مما قيل لهم إنها استغرقت القوافل السابقـة .
.. ركـب من ركب الجمال فوق الأحمال ، وســار عـلى قدميـه مـن فضـل المسـير ، وارتفـع حـداء قائـد القافلة ، يستحث الإبل على الإسراع ، ويبثها شوقه إلى الديار والأحبة الذين فارقوهم منذ أسابيع ؛ كان الصوت شجيا ، أثار فى عبد الله مشاعر الألم والحزن التى كمنت بداخله منذ غادر مكة ، وباعـدت بينـه وبين أماكن اللهو والسمر ، وجعلته مصدرا للكآبة بين أقرانه ، ثم ها هو ذا غناء الحادى يـؤجج مشـاعر الحنين لأولئك الذين فارقهم على غير هواه ، بدلا من أن يبعث فى نفسه الفرحة بقـرب العـودة ، فعبـد الله لم يعد يطيـق استمرار البعاد ولو للحظة واحدة ، حتى انه كلما تطلع ببصره إلى السماء يتمنـى لـو كان صقرا يشق الفضاء بجناحيه ، فيقطع المسافات التى تفصله عن آمنة فى طرفة عين ، بـدلا مـن هـذا الزحف البطىء للإبل الذى يأكل العمر أكلا .
غشيت عينى عبد الله سحابة من الدمع ، فـراح يخفيهـا بطـرف عباءتـه عمـن حولـه ، بيـنما أخـذت أصابعه تخترق كومة الأقمشة التى يجلس فوقها ، متحسسة ملمـس الحريـر ، فـذاك هـو الثـوب الـذى اشتراه لآمنة ، وهذا ملمس البردة الدمشقية التى تخيرها من بين عشرات لابنه ، الذى لم تنقطـع صـورته التى تمناه عليها ، عن عينيه فى صحوه ونومه ، وفاضت دموع عبد الله مرة ثانية ، وملأه شـعور قـوى بأنه لن يعود إلى داره ، ولن يرى زوجته ، ولن يشهد لحظة مولد ابنه !!.

.. وعندما لاحت مشارف طيبة للعيون ، ارتفعت حرارة جسد عبد الله ، وبدأ يشعر بآلام شديدة تنمو وتشتـد وتنتشر داخل جسـده وتوهن قواه ، وما إن وصلت القافلـة إلى طيبـة حتـى انهـار تحـت شـدة المرض ، ولم يعد قادرا على مواصلة طريق العـودة .
قـرر سادة القافلة أن يخلفوه عند أخواله من بنى النجار بطيبة ، ليعتنوا بـه حتـى يشـفى ويسـتطيع مواصلة السفر ، ولما تم لهم ما أرادوا ، ومع أول خيوط الظلام ، بدأت القافلـة تشـق ليـل الصـحراء إلى مكة ، ولم ينس عبد الله ، رغم الآلام الرهيبة التى تفتت عظامه وتسحقه سحقا ، أن يرسـل مـع الـذين كان حظهم أحسن منه ، بالهدايا التى اشتراها لآمنة وللوليد .

ـ 3 ـ

طاف البشير بدور قريش يعلن عن قرب وصول القافلة ، ولما آن الأوان ، خرج سكان القرية عن بكـرة أبيهم يستقبلون بالفرحة الذين طـال الشـوق إلى عـودتهم ، معـبرين عـن فـرحتهم بالغنـاء ، تشـاركهم الدفوف والأكف فى ضبط الإيقاع .

جالت العينان الكليلتان فى لهفة بالموجودين ، مرات .. ومرات ، بحثا عن عبد الله فلم تبصرا به بين الوجوه ، ثم لم تعد هناك طاقة على الصبر ، وانفجر اللسان بالسؤال :

ـ أين عبد الله ، أين ولدى ؟!.

سكت سادة القافلة للحظات ، وحين تكرر السؤال ، أجابوه مشفقين على الكهل ، فهم يعرفون شدة حبه للغائب، قالوا :

ـ خلفناه عند أخواله بطيبة .. مريضا .

تباطأت دقات قلب آمنة ، حين سمعت بغياب زوجها ، انسحب الشوق وانفعالات اللقاء ، وتحول وجيب القلب إلى عويل مكتوم ، لكنه انفلت فى صرخة داوية حين ناولوها هداياه ، وأوجعها سؤال دوى فى أعماقها ..

: أيولد ولدى فلا تشرق بالرضا فى وجهى بسمة عبد الله ؟.

بكت وتوسلت إلى عبد المطلب أن يرسل إلى طيبة بمن يطفئ نار القلق على الغائب ، ولم يكن الشيخ فى حاجة إلى من يستنفره ، فلقد كان فؤاده ينتفض ألما بعد أن ذبحه خبر المريض ذبحا ، صاح باللوعة قائلا :

ـ بأبى أنت وأمى يا عبد الله .

.. ثم أسرع إلى مجلسه بالكعبة ، فوجد أبناءه قد تجمعوا فى حزن يتناجون ، وقد أصابهم النبأ بالغم فلم يعبئوا بما وصلهم من مال وفير ، ولم يفضوا أغطية ما ابتاع لهم أخوهم من بضاعة طلبوا منه شراءها من الشام ، وكانوا لا ينقطعون عن الحديث فى لهفة حول موعد وصولها ، وكيف لهم أن يفرحوا وقد أصر عبد الله على أن يرسل مع القافلة مالهم من متاع ومال ، وكأنه يقول لهم : لقد برأت ذمتى أمامكم ، ولن أعود .

قال عبد المطلب :

ـ أخوكم مريض عند أخواله بطيبة ، وقلبى لا يجد راحة فى بعاده ، فبماذا تشيرون ؟.

قال عبد العزى معقبا فى همس كالفحيح :

ـ أليس هو من كنت تريد ذبحه يا أبانا ؟!.

زجره الحارث ، يأمره بالسكوت ، قائلا :

ـ صه .. صه ، واللات والعزى ، إذا كان هناك من يستحق الذبح ، فهو أنت يا ميت القلب .

أشار عبد المطلب على أبنائه بالصمت ، فلقد رأى بوادر خلاف توشك أن تدب بينهم ، وكان عليه أن يفاجأهم بما يربك عقولهم ، ويوقف المشاحنة بينهم ، فأعلن قائلا:

ـ إننى راحل للحظتى إلى حيث ولدى .

.. ولكن الحارث اعترض قائلا :

ـ يا أبت إنك شيخ كبير ، ونحن عصبة ، فإن تأذن لى فإنى ذاهب إلى حيث تأمر .

قال عبد المطلب :

ـ بورك فيك يا حارث ، اذهب أنت إلى أخيك ، فأنت أحقنا به ، فلقد قاتلتنى يوم الذبح حتى تنجيه .

ـ 4 ـ

ذهب الحارث إلى طيبة .

وكما ذهب عاد ..

ولكن شتان بين الحال والحال :

لقد ذهب يرافقه الأمل والشوق ، الأمل فى أن يجد عبد الله قد شفى ، والشوق لرؤية أحب الاخوة إلى قلبه .

.. وعاد والألم والحزن يعتصران فؤاده : الألم من أجل أخيه الذى رحل صغيرا ، فلم يتمتع بحياته فلم يصخب للدنيا ولم تصخب له ؛ والحزن من أجل الأب الذى جعله الأمل فى عودة الغائب لا يطيق مكوث الحارث بينهم للحظة ، بعد أن أعلن عن استعداده للسفر ، وطالبه بسرعة الرحيل وسرعة الإياب ، وزاد من مرارة الموقف ذلك اليتيم الذى ذاق مرارة اليتم وهو بعد جنين فى بطن آمنة ، وآه لو جاء أنثى فإن أكثر الأعمام لا محالة سيسارعون إلى مواراتها التراب ، فمن سيكون حاميا لها من بعد عبد الله .. وقد مات .

حين لاح الحارث مقبلا من بعد يقدم رجلا ويؤخر الأخرى ، هش الشيخ لمقدمه ، حتى أوشك أن ينهض لاستقباله ، ولكن ساقيه لم تسعفاه ، فظل جالسا يترقب ، ولما اكتشف أن الحارث يقف صامتا دون أن يذكر أخيه ، جف لعابه ، وتشققت حنجرته ، وتحشرج صوته سائلا :

ـ أراك قد عدت وخلفت أخاك ؟!.

اشرأبت الأعناق منتظرة ما سيقال ، حاول الحارث أن يناور ويؤخر الرد ، تحرك يبحث عن مكان يجلس فيه، وإن كان وجهه الحزين يفضح حقيقة ما حدث ، لكنه الأمل يمسح كل حقيقة لا يجهر بها ، جعل الأب يقول ، يستعجله :

ـ لم لم تأت بعبد الله يا حارث ؟!.

غمغم الحارث بكلمات متباعدة لا تكاد تبين :

ـ لقد اشتد عليه المرض ، وأعجز الأطبة ..

فى لهفة اليائس المشتاق لأن تدمره قسوة ما يخفيه الصمت ، قال عبد المطلب :

ـ قل الحقيقة ، وأوجعنا بها يا حارث .

خرجت الكلمات من فم الحارث فى سرعة ، فهو على حال من يحمل أثقالا ترهقه ، ويريد أن يرمى بها ليستريح :

ـ لقد مات عبد الله ، ودفنه أخواله بطيبة .

أصابت كلماته عبد المطلب بصدمة عظيمة ، فغاية ما كان ينتظر سماعه ، أن عبد الله لم يبرأ بعد من مرضه، أما أن يكون قد مات ، فهذا ما لم يكن فى الحسبان ، لذا فح متوجعا يقول لائما الحارث :

ـ ليتك ما أطعتنى ، ليتك ما أجبتنى ، ولا قلت .

.. وشهق الشيخ شهقة عظيمة ، واتسعت حدقتاه ، واحمر وجهه احمرارا شديدا ، حتى ظن أبناؤه أنه هالك لا محالة ، ولكنه تنهد تنهيدة طويلة وصرخ فى التياع :

ـ وا ذبيحاه .

وانكفأ وجه الشيخ مدفونا بين كفيه الكبيرتين ، وأجهش فى البكاء .

.. هنا فقط أدرك الأبناء أنهم لم يعودوا عشرة ، وأن أخا لهم قد مات ، فسالت الدموع تبلل شعر الذقون .

ـ 5 ـ

.. كأنما وصلت صرخة عبد المطلب إلى أذنى آمنة ، ففى ذات اللحظة انهمرت دموعها وهى لا تدرى لبكائها سببا ، ولا لانقباض قلبها تبريرا ، وحين جاءتها النسوة صاخبات نائحات معزيات ، عرفت لدموعها تبريرا ، ولانقباض قلبها سببا ، فزاد نحيبها ، وراحت تنظر إلى ما ببطنها ، وهى تولول قائلة :

ـ وا زوجاه .. وا وليداه .. وا يتيماه .

زادت كلماتها نواح النسوة ،فلقد تجاوبت أعماقهن مع ألمها ، فهن يعلمن حال اليتيم فى قريش : فلا ميراث ولا حقوق ، ولا رعاية ، وآه .. آه لو ولدت آمنة بنتا، فإن وليدتها موءودة بلا رحمة، ولا شفقة بمن حملت وحلمت .

.. وأصبحت الباكيات النائحات ، يبكين حالهن لا حال آمنة ، وإن كان نداء الأعماق واحدا ..

: يا لغلظة قلوبكم يا رجال قريش ، تعطون للعبيد حقوقا أكثر مما تعطونه لنسائكم .

بعد وقت طال ، انفض موكب النائحات من حولها ، وجدت آمنة نفسها وحيدة ، ذاهلة ، لا تكاد تصدق أن ما سمعت ورأت حقيقة واقعة ، أو أنه حدث وكان ..

: أمعقول أن عبد الله قد رحل عن دنياها إلى الأبد ؟!.

: أهكذا سريعا تصبح أرملة لا عائل لها ، ولا بعل ، وهى فى لحظة وضع تكون فيها المرأة أحوج ما تكون للزوج .

.. انفرط قلبها حزنا ، ملأتها قتامة كادت تفجر كيانها ،ولكن تلك المخلوقات التى تأتيها منذ حملت ، وتشعر بها تحيطها وتحوم من حولها ، فأنست بها وأصبحت تهش لحضورها ، بعد أن كانت تخافها ويقشعر منها جلدها ، فهى لا تراها ولكنها تشعر بوجودها ، وتشم رائحتها عطرا رائعا يفوق رائحة المسك ؛ ها هى ذى تأتى لتملأ بالعطر خياشيمها ، وبالسكينة نفسها ، حتى أنها استكثرت على نفسها حال الهدوء الذى أصبحت عليه ، وخجلت منه وهى على ما هى عليه من حال الحزن ، وقد ألح عليها السؤال ..

: إلى أى مصير ستأخذ ابنى أيام اليتم ؟.

وجاءتها أجابتهم سريعة ..

: اطمانى ، ولا تأسى عليه .

قالت ..

: أخاف عليه من ظلم القرشيين ، وغلظة قلوبهم ، وهو ابن واحد وحيد بلا نصير من الاخوة ، ولا سند من الأب .

: لا تخافى فهو سيكون سيد هذه الأمة .

: ابنى سيد الأمة ، اليتيم ؟!!.

: يتمه لحكمة ، هو يتيم حتى لا يكون لإنسان فضل عليه ، فهو فى فضل الله ورعايته .

: أهو إلهكم .

: إلهنا وإله آبائنا ، وإله وليدك الذى سيدعو إلى عبادته .

: عبادة من ؟.

: الله الواحد ، خالق كل شئ .

: الله .

: الرزاق ، الكريم ، الرحمن ، الرحيم ، المحيى ،المميت ، يختص من يشاء بما يشاء ، ويجتبى من يشاء لما يشاء ، وهو على كل شئ قدير .

: سبحانه .

: سبحانه وتعالى علوا كبيرا .

: قلبى يقول لى كلما حضرتم ألا أخاف عليه ، ألا أخاف ؟.

: أبعد ما عرفت تخافين ؟.

: لا والله ، ما لى أن أخاف .

انتابت آمنة فرحة عظيمة ، حتى أنها تمنت لو ترى ابنها بين يديها، وقد كبر وساد قريشا، تساءلت فى شوق ..

: متى يجئ ؟.

: الاثنين ، ذلك القابل ؛ فإذا ما أهل قولى : أعيذه بالله الواحد من شر كل حاسد .

- 6 -

اليــوم : الاثنين ـ الثانى عشر .

الشهـر : ربيع الأول .

السنـة : 52 قبل الهجرة .

يا أيها الليل ما أعجبك ..

رأيناك قدر ما رأينا ..

ولكن على مثل هذه الحـال ما رأيناك : فنجومك لا ترسل بنورها على حياء كما تعودنا ، ولكنها نجـوم تتألق وتسطع متوهجة وكأنها الثريا ، حتى بدا نور القمر فى مواجهتا واهنـا ، ثـم هــا هــى ذى النجـوم تقترب من الأرض : تدنو وتتدلى ، حتى باتت من الأرض قاب قوسين أو أدنى .

.. حين رفع الكاهن بصره إلى السماء ، ورأى حالها ، صرخ ملتاعا ، يقول :

ـ إنها والله ليلة مولده .

ثم أخذ يخور ويمور ويزأر ، ويجأر قائلا :

ـ ولد الهادى البشير ، ولد نبى الأمة الخاتم ، ولد إمام الحامدين .

منذ زمن ليس ببعيد ، جاء هذا الكاهن ، واستقر بين أهل مكة لا يغادرها ، وهم لا يعرفون له بلـدا ، ولا اسما ، ولا يدرون لإقامته بينهم سببا ، وظلت غرابة تصرفاته ، وتقلـب أطـواره ، تلفـت أنظـارهم ، وتشد انتباههم إليه ، وإن ألفوا أفعاله ، وأكبروا فيه اهتمامـه بحيـاتهم ، وكـثرة سـؤاله عـن أحـوالهم ، وكان أكثر ما يسأل عنه ، ويجذب اهتمامه خبر من يرزقون بالبنين ، ثم كشفت فراستهم ستره ، وأيقنـوا أنه يترقب طفلا بذاته يعرف بشارته .

فلما كانت ليلتنا هذه ، أصابه ما أصابه ، وخرج عن وقاره المعهود ، وراح يجرى فى الطرقات ، يعـترض طريق كل من يراه سائلا فى صراخ مخيف :

ـ هل ظهر فيكم الليلة مولود ؟.

فيجيبونه وهم ينأون عن طريقه :

ـ والله ما نعلمه .

ولم تكن إجاباتهم لتطفئ من ظمأ بحثه عن الحقيقة التـى يعلـم أنهـا واقعـة فى هـذه الليلـة ، إن لم تكن قد وقعت ، فكل ما يرى حوله من المظاهر والآيات يؤكد مولد النبى المنتظر .

وكما أثارت العلامات مشاعر الكاهن وهيجته ، أثارت حاله حب الاستطلاع لدى القرشيين ، فراح مـن سألهم يسألون من يرونه ، قائلين :

ـ ألم يرزق أحد بطفل ؟.

حتى علموا بمولد طفل بدار عبد الله بن عبد المطلب ، أسرعوا إلى الكاهن يزفون إليه البشرى ، قائلين :

ـ لقد ولد اليتيم .

صاح فيهم متوسلا :

ـ خذونى إليه .

قالوا له :

ـ واللات والعزى ، إنا لأخذوك إلى جده .

- 7 -

جاءت أم أيمن جارية آمنة إلى عبد المطلب بالكعبة ، مهللة تزف إليه البشرى ، قائلة:

- يا سيد قريش ، لقد رزقت بابن هو خير عوض لك عن ابنك عبد الله .

رفع عبد المطلب يديه إلى السماء شاكرا لله فضله ، ثم أسرع مع الجارية إلى بيت آمنة ، وهو يقول فى نفسه : يا لفرحة قلبى بمولد ابنى .

بالحب أودعت آمنة وليدها يدى جده ، فلما أخذه منها ذاب عبد المطلب وجدا ، وقد شعر بكل ذرات جسده تتقافز وتتحول إلى حب عظيم لذلك القادم للدنيا يتيما ، حتى لقد فاقت مشاعره فى هذه اللحظة ، ما شعر به لحظة احتضن عبد الله أحب الأبناء وأعزهم ، بعد أن أنقذ من الذبح ، وتم الفداء .

لقد تأجج كيان عبد المطلب بالوجد ،فراح ينتفض ، وتصطك أسنانه ، وكأنما أصابته الحمى ، حتى خاف أن يسقط الطفل من بين يديه ، فضمه إلى صدره بقوة ، وهو يتمنى لو ينشق صدره ، ليحتويه بداخله بعيدا عن كل تلك الدنايا ، فيحميه ويحتمى به من غدر الأيام .

.. كانت آمنة ترقب حال الجد بعين الرضا ، وهى تطمئن نفسها قائلة :

- والله إن ابنى ليجتاح القلوب بحبه ، وان له ربا يحميه .

.. ولما هدأ روع عبد المطلب ، قصت عليه آمنة ما جاءها من الهواتف ، وما رأت من رؤى ، وعبد المطلب ينصت إليها بكل جوارحه ، فلم يقاطعها بكلمة ، ولم يعارضها فى قول قالته ، هانئ بما يسمع ، منتش بما يحمل بين يديه ، وحين فرغت آمنة من كلامها ، قال :

- هو بإذن الله محمد ، وهو أحمد ، ومحمود ، وما رأيت يا آمنة هو تفسير لرؤياى التى رأيت فيها أنه قد خرجت من ظهرى سلسلة من فضة لتمتد عبر السماوات والأرض .

: سبحانك يا فعال لما تريد ، يا منطق مخلوقاتك بالحق حين تشاء .

: سبحانك يا من أنطقت عبد المطلب بما أمرت ، فأسمى حفيده محمدا ، وهو الشيخ الذى أنجب عشرة من الذكور ، فلم يخطر له أن يسمى أحدا منهم بالاسم الذى اخترته لنبيك ، فهو إمام الحامدون لله .

: .. وكيف لا يكون إمام الحامدين محمدا ؟.

: .. وكيف لا يفعل عبد المطلب هذا ، وقد جعلته يسمى الأب عبد الله ، حتى يكون الابن بالتبعية هو أيضا عبدا لله ، وهكذا جعلت محمدا : محمد عبد الله .

: سبحانك يا مالك الملك ، أبنت طريق نبيك منذ مولده .

فهل من متبصر ، ليبصر ؟.

حين هم عبد المطلب بالخروج إلى الكعبة ليطوف باليتيم ، إذا بالكاهن يقبل وخلفه قد تجمع الناس بالعشرات ، فما إن رأى الوليد بين يدى عبد المطلب، حتى انقض عليه يتفحصه فى لهفة، ثم استدار إلى الناس يصيح قائلا :

- والله إنه هو أحمد ، وإنه لجاعل لكم ولقريتكم شأنا وأى شأن .

ثم خر الكاهن على الأرض مغشيا عليه .

اخترق عبد المطلب الجموع الملتفة حول جسد الكاهن ، مبتعدا بحفيده وهو يحمله بين يديه ، بعيدا عن هذا الصخب ، وفى اعتزاز كان يقول لكل من يقابله :

- لقد رزقنا محمدا .

طاف عبد المطلب حول الكعبة بمحمد سبعة أشواط ، مهللا مكبرا ، متوسلا لله أن يحمى حفيده من كل شر وسوء، منشدا ما تفيض به عواطفه من جميل الشعر، وحين انتهى نحر العقيقة ووهبها لفقراء قريش ولأثريائها.

مرت شهور ..

وكعادة شرفاء مكة مع أبنائهم ..

حملت أم أيمن محمدا وصحبتها سيدتها آمنة ، واتجهتا إلى سوق مكة ، حيث تتجمع المرضعات من قبيلة بنى سعد بن بكر ليصحبن مواليد سادة قريش معهن إلى مضاربهن ، حيث الهواء النقى واللسان الفصيح ، فيشب الأطفال فى جو يساعد –أبدانهم على أن تنمو معافاة ، وعلى سلامة لسان تجعل منهم الفصحاء ، نظير أجر يقضى إليهن ، ولقد كان عامهن هذا غير أى عام آخر ، فلقد انقطع المطر عن السقوط ، فامتنع الماء ، وندر الكلأ فجفت ضروع الأغنام ، وهزلت سنام الإبل ، وأصبح العثور على الطعام أمر نادر شحيح ، لهذا كانت مرضعات بنو سعد متلهفات على أن يصبن خيرا من وراء أطفال قريش ، فرحن يتنافسن على حضانة من يبدو عليهم الغنى من الأطفال ؛ وحين عرضت آمنة ابنها عليهن أبين أن يأخذنه ، فما حملته آمنة معها من زاد يبدو قليلا ، ويشى بضيق ذات اليد ، كما أنهن قد عرفن بموت أبيه ، فكلما سألن :

- من أبو الطفل ؟.

قالت آمنة :

- هو يتيم .

.. ومن هى التى تقدر على تحمل فم يزيد من همها ؟!.

كان محمد ملتصقا بصدر آمنة ، بعد أن أخذته من أم أيمن ، وهى بأخذه منها ، كانت تريد أن تخفف عنه مرارة الرفض والجفوة ، وأن تسقيه من حبها الصامت الذى يمور فى جوفها كالبركان مشتدا متحديا ، بعد أن نال الحبيب رفض المرضعات ، تتمنى لو أنه يدرك أنه أعظم ، وأغلى ، وأعز، من كل أولئك الأطفال المتدثرين فى الحرير ، ولكن إذا كانت آمنة تعرف بهذا ، وتوقن بصدقه ، من أين لأولئك المرضعات العجفاوات أن يعرفن ؟!.

كادت آمنة أن تستدير لتغادر السوق، راجعة بحبيبها، وقد ملأ الدمع عينيها، فكفاها ما لاقت من مهانة، لذا راحت تتمتم لنفسها قائلة :

- والله ما ابنى بحاجة إلى نقاء هواء دياركم ، ولا إلى تعلم فصاحتكم ، فهو محفوظ من خالقه ، وسيعلمه ربه ويربيه فيحسن تعليمه وتربيته .

.. ولكن مع استدارتها للرحيل ، انتبهت إلى أن تلك المرضعة العجفاء التى لم تحول عينيها لحظة عن محمد ، تشير إليها فى تردد ، لكى تقبل عليها .

كانت حليمة منذ وفدت إلى السوق ، ترغب فى أخذ محمد ، ولكن : حمارها الأعجف ، وناقتها المتهالكة ، ومعدتها الخاوية ، وبكاء ابنها الذى لا يجد فى ثدييها ما يسكت جوعه ؛ كل هذا كان يمنعها من الإقدام على تنفيذ ما تريد ، ولكنها فى النهاية لم تستطع أن تقاوم ، ومدت يديها تتناوله من أمه فى لهفة وشوق ، لا تدرى لهما سببا ، فلقد حنت إليه كحنينها إلى ابنها أو أشد .

حين استقر الحبيب محمد على صدر حليمة ، شعرت بالأسف لأجله ،فلكم كانت تتمنى لو أن حالها كان خيرا مما هى فيه ، لتستطيع أن تغدق عليه من الخير تعبيرا عن تعلقها به ؛ ولقد تمنت آمنة - فى تلك اللحظة - لو أن لديها الكثير من الزاد لتغدق به على تلك التى أحبت ابنها !!.

كان الحياء يلجم لسان المرأتين ، فلم تنطقا بكلمة ، وإن تبادلتا نظرات تفيض بالخجل والشفقة ، ولكن قلب آمنة لم يطاوعها على طول الصمت ، وقد بدأت المرضعات يعلن بالرحيل ، قالت فى رجاء :

- كونى له خير أم ، وإنك ورب البيت لن تكونى على أخذه نادمة .

ضمته حليمة بالإخلاص إلى صدرها ، وكأنها تدعوها لأن تطمئن ، ففاض صدرها منتفضا بالحياة ، حتى أنها لم تعد تحتمل الفيض ، فألقمت اليتيم ثديها فرضع وارتوى ، وهى ذاهلة مما اعتراها ، وآمنة ترقب ما يحدث ، وقد أضاء وجهها بنور الرضا ، واقتربت تربت على كتف حليمة ، وهى تعيد ما قالت مؤكدة :

ـ ألم أقل لك ، انك لن تكوني على أخذه نادمة .

حيتها حليمة بابتسامة ، واستدارت تركب حمارها ، لتلحق بمن سبقنها عائدات إلى مضاربهم ، ولم تنصرف آمنة إلا بعد أن غابت حليمة ومحمد عن عينيها ، وإن لم يغب الحبيب عن فؤادها .

انطلقت الأتان كالريح بحليمة وولدها ، وهى فى عجب مما يحدث لها من خوارق منذ أخذت الطفل اليتيم : فها هو ذا صدرها قد فاض باللبن بعد أيام من الجدب ، ثم ها هو ذا أتانها يلحق بكل من سبقنها بالمسير ، بل ويسبقهن ، بل ها هى ذى ناقتهم العجفاء تتابع أتانها نشطة لا تشكو عرجا ، ولا تنيخ تعبا من حمل زوجها وابنها ، ولم تكن الدهشة والعجب هما حال حليمة وحدها ، بعد أن أصاب ما يحدث الركب كله بالذهول .

.. وسبحان مغير الأحوال .

- 9 -

تقول حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية :

- حين رجعنا إلى مضاربنا ، ودخلنا دارنا ، كان الجوع والعطش قد اشتدا علينا ، فقلت لزوجى : قم فالتمس لنا قليلا من اللبن فى ضرع الناقة ، فنرتوى ونطعم .

ضحك صاحبى ساخرا من قولى ، فأى ناقة تلك التى ستدر اللبن ، وهى بالمعجزة استطاعت أن تحمله إلى مضاربنا ؟!!.

لكنه أطاعنى وقام على مضض ، وحمل معه إناء فارغا ، وغادرنا إلى حيث وقفت الناقة ، وحين عاد وجدت شدقيه مخضبين باللبن يلتمع عليهما الدسم فهللت .

قال زوجى وهو يناولنى الإناء ممتلئا حتى حافتيه ، ويرمق ابنى محمدا بنظرة شاكرة :

- أتعلمين يا حليمة ، والله انك قد جئتنا بنسمة مباركة .

قلت سعيدة :

- والله وإنى لأرجو ذلك .

.. وبتنا ليلتنا بخير حال .

فى الصباح خرج الرعيان بالأغنام ، إلى الأرض التى أجدبت ، فلم يصيبوا إلا الخيبة والبوار ، لكن غنمى حين عادت كانت شبعى ، وقد امتلأت ضروعها لبنا ، وظل هذا حالها على مدى الأيام : نحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان من بنى سعد قطرة لبن ، فكنا نعطيهم مما يفيض عندنا ؛ فكانوا يزجرون رعيانهم قائلين : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى ابنة أبى ذؤيب .

ومرت بنا الأيام ، ونحن على خير حال ، ومحمد ابنى لا أجد منه ما ينغصنى ، حتى تمنيت لو أضمه ابنا مع ابنى فلا يفارقنى .

وحين شب ، بعد عامين ، وبلغ سن الفطام ، ذهبت إلى أمه وقلت لها :

- ألا تتركين ابنى أرعاه حتى لا يصيبه ما أصاب أهل مكة من وباء ؟.

.. وظللت بها أحاورها ، حتى ردته معى .

.. كان يشب سريعا ، وينمو بديعا ، حتى فاق نموه نمو أخيه ، بل كان أكثر منه فطنة ، وأكثر ذكاء ، إلى أن كان ذلك اليوم ، وقد بلغ من العمر خمس سنين أو يزيد قليلا ، وخرج وأخوه يرعيان أغنامنا ، وما هى إلا سويعات وجاءنى ابنى يتكفأ مرعوبا وقد امتقع لونه ، وتقطعت أنفاسه فرقا على أخيه ، وقال :

- إن أخى محمدا قد جاءه رجلان فى ثياب بيض ، وبعدا به فى الصحراء ، ثم شقا بطنه .

فخرجت ومعى أبيه إلى حيث أشار ، نولول وناديه ، فوجدناه قد أضجع على الأرض ، فحملناه وعدنا به نسأله عن ما به ، فأكد ما قال أخوه ، وأضاف قائلا : إن الرجلين قد غسلا جوفه بالماء والبرد ، وأنه لم يشعر لذلك بوجع .

.. ولم ننم ليلتنا ، وبت وصاحبى نتشاور حتى طلع علينا النهار ، ثم قر قرارى وزوجى على أن نعيده إلى أمه ، قبل أن يظهر عليه سوء مما أصابه به الرجلان .

وحين دخلنا به على أمه ، دهشت من ردنا المفاجئ لولدها، وقالت :
- ما حملك على أن تعيديه ، وقد كنت حريصة على مكثه عندك ؟!.
حاولت أن أتجنب إخبارها بما حدث ، حتى لا تتهمنى بإهمال أو تقصير ، لكنها اشتدت فى طلب ما خوفنى من إبقائه ، فقصصت عليها ما كان ، فلم أجد منها فرقا ولا ملامة ، بل إنها قالت متسائلة فى استنكار :
- أوقد خشيت أن يكون ما فعل به من الشيطان ؟!!.
قلت صادقة :
- هو ذاك .
قالت تطمئننى وتهون على :
- لا بأس عليك ولا عليه ، لقد أردت منذ البداية أن أنبئك بما أخبرت عنه ، ولكنى سكت فما كنت لتدركى معنى ما أقول، ولكن بعد ما رأيت ما رأيت ، وقد أصبحت أما لمحمد ، فلا بأس من أن تعلمى : إننى حين حملت به رأيت أنه خرج منى نور ، أضاء قصور بصرى بأرض الشام ، ثم إننى ما رأيت عنتا ولا مشقة فى حمله ، ولم أجد مما تحدثت به من سبقننى إلى الحمل شيئا ، فحمله كان يسرا فى يسر ، ولقد وقع حين ولدته ، وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ، مختونا ، نظيفا ، لا تشوب جسده أية دماء ..
وحين انتهت من الكلام ، أخذت منى ولدى ، وقالت لى :
- دعيه وانطلقى راشدة .
وودعت ولدى ، وتركته غير راغبة فى تركه ، فكأنى ودعت السعادة والخير كله .

- 10 -

استقر المقام باليتيم فى كنف جده عبد المطلب ،ولقد وجد الجد فى سلوك الحفيد ما قربه من قلبه ، حتى صار أحب إليه من أبنائه ، ومن كل أحفاده ، وكان يقول عنه :
- هذا ابنى محمد .
تعلق محمد بجده تعلقا شديدا ، فلم يجد له أبا سواه ، فكان لا يفارقه إلا إذا غلبه النعاس ، فيأمر عبد المطلب أعمامه فيحمله أحدهم ويذهب به إلى أمه .
ذات يوم ، تفقد محمد جده ، فلم يجده فى مجلسه بالكعبة ، فأخذه الخوف كل مأخذ ، وراح يناديه ، ثم جرى فى كل درب يبحث عنه ، حتى ضل طريقه إلى خارج مكة .
وحين عاد عبد المطلب علم بما حدث لمحمد ، فغضب غضبا شديدا من أبنائه لأنهم لم يهدئوا روعه ، وأرسل يبحث عنه فى كل مكان ، وخرج هو وصاحبه ورقة بن نوفل ، يبحثان عنه ، حتى أبلغ بأن بعض الرعيان قد عثروا عليه ، وأعادوه إلى دار آمنة ، فأسرع الجد إليه ، وحين أمسك به راح يضمه إلى صدره ، ويغطه غطا شديدا ، ثم أقسم ألا يبعد عنه ابنه ما عاش .
ولكن عبد المطلب نكث فى عهده بعد أيام قليلات ، فلقد كان مضطرا لذلك ، بعد ما أبلغته آمنة بأنها ترغب فى أن تصحب ابنها معها لزيارة أهلها بطيبة ، ولتزور قبر زوجها الحبيب عبد الله .
لم يكن أمام عبد المطلب إلا أن يجيبها إلى طلبها ، فهو يرى أمامه زوجة أخلصت لزوجها كل الإخلاص حتى صارت من شدة الوجد جلدا على عظم ، فلعلها واجدة فى زيارة قبر عبد الله ما يهون عليها مصابها، فقال لها :
- والله يا ابنتى ، لو بذلت الغالى والنفيس ، فداء لنقضى لعهدى فلا أبالى ، فى سبيل تحقيق ما طلبت ، فنعم الزوجة أنت ، ونعم الأم ، فاذهبى راشدة بابنى أنى شئت .

رحلت آمنة إلى طيبة ، ومعها وحيده وجاريتها أم أيمن ، وقبل دخولها إلى ديار بنى النجار ، زارت قبر عبد الله ، وساخ دمعها ، وتناثرت نفسها وجدا وحزنا ، وشردت وطال شرودها ، وحين يكلمها الأهل ، ليخرجوها مما هى عليه ، فلا حديث لها إلا عن الحبيب عبد الله :

.. ماذا قال ؟..

.. ماذا كان يفعل ؟..

.. كيف قود قافلة التجارة ؟..

.. وبماذا أوصاها قبل أن يرحل ؟.

وحين استأذنت فى العودة بابنها إلى جده ، مرت فى طريق عودتها بقبر زوجها ، فتمكن الحزن منها ، وازدادت صمتا على صمتها ، وأصبحت فى حال من الشرود ، جعلها لا تدرى شيئا عما حولها ، ولا حديث لها إلا بهذيان عن الزوج الذى رحل .

تقطع فؤاد محمد ألما ، وهو يرى أمه الحبيبة تذوى وتذبل أمام عينيه ، فرجاها أن تستمع إلى أم أيمن ويجنحوا إلى الراحة ، ولتأكل بعد أن صامت عن الطعام أياما ، ولكنها لم تكن تسمعه حتى تستجيب لرجائه ، وواصلت القافلة الحزينة طريق العودة .

.. وكلما مر يوم ، زادت حال آمنة سوءا ، وراحت تنهار وتذبل أمام الصبى ، وهو لا يملك أن يفعل شيئا من أجل إنقاذها ، ولا كانت أم أيمن هى أيضا تستطيع شيئا ، وهو وهى لا يملكان غير البكاء على الشابة النضرة التى تسرع بها خطى الأيام إلى الموت .

.. ماتت آمنة .

وحزن عليها محمد حزنا عظيما ، فهو للمرة الأولى فى حياته ، يدرك الشعور باليتم ، ويعرف معنى الفقد ، وناحت عليها أم أيمن نواحا هو كالعويل ، فهى تدرى ما وراء موت الأم قبل أن ترى ما تمنت لابنها يتحقق ، هو شعور لا تعرفه إلا من هن مثل أم أيمن من اللاتى عايشن حياة العبودية ، وتعلمن أنه لا سلطان لهن على شئ : لا الابن ، ولا الزوج ، فهن لا تملكن لهم بقاءا أو رحيلا ، فأمرهم ملك يمين من يشترونهم من السادة ، يبقون من يريدون ، ويبيعون ما يشاءون ، ولا مبالاة بالنفوس ، ولا بالمشاعر ، ولا بالأحلام التى يدمرونها بقسوة أفعالهم .

.. زفرت أم أيمن فى حسرة وألم ، وهى تضم محمد إليها ، وتمسح دمعه ، قائلة :

ـ لك الله يا ولدى ، لك الله يا محمد .

وابتعدت تحفر الرمال فى ظل جبل ، وساعدها محمد ودموعه لا تتوقف ، ثم دفنا الأم .

حين دخل الموكب الحزين مكة ، أسرع عبد المطلب لاستقبال ابنه ، بعد أن شاع فى مكة ما حدث ، من الركبان التى مرت بهم ، وسبقتهم فى العودة ، وأدرك الشيخ بحنكته مدى المأساة التى عاشها محمد ، حين نظر إليه ، قرأها على وجهه الذى لم تجف عنه الدموع ، فقرحت بشرته بخطوط محمرة ، وإن أخفى تراب السفر بعضا من شدتها ، وتقطع قلب عبد المطلب لكل ما لقيه الصبى من صدمات وأهوال ، هو بعد أصغر وأضعف من أن يحتملها ، فلقد فقد الأب وهو لم يزل بعد جنينا فى بطن أمه ، ثم ها هو ذا يفقد الأم وهو لم يبلغ السابعة من عمره ..

: ياله من ألم ، ويا لها من حياة شديدة القسوة ، كتب عليك أن تحياها يا محمد .

انحنى الشيخ يحتضن محمدا ، واختلطت دموعهما فى نحيب صامت ، ولم يجد الصبى ملجأ إلا بدفن جسده فى ذلك الجسد الفانى ليستشعر الأمان ، والألفة اللتين أفتقدهما منذ ماتت أمه .

.. ولم يتوقف مسلسل الفقد ، إلا لسنتين اثنتين ، عاشهما الصبى فى كنف جده عبد المطلب ، لا يفترقان أبد ، ثم أرسل الجد ذات يوم يستدعى ابنه أبو طالب ، وقد شعر بدنو الأجل ، وأوصاه بمحمد خيرا ، ثم مات بعد أيام قليلات .

.. وبكاه محمد بكاءا مرا ..
.. وحزن عليه حزنا عظيما .
.. فلقد عرف بموت جده معنى فقد الأب .
.. وهكذا أطبق اليتم على اليتيم ، وهو بعد على أبواب الصبا .

الفصل الثالث :

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

سورة الحجر

المعصـوم

ـ 1 ـ

انتقل محمد ليعيش فى بيت عمه أبى طالب ، ولقد وجد أبو طالب نفسه تتعلق بمحمد لذكره الدائم لجده بالخير والعرفان ، ولقد تنزل حب الصبى فى قلبه حتى تمكن منه ، فكان يحاول أن لا يحرمه من أمر كان له أيام عبد المطلب ، فها هو ذا عمه يجعله قريبا من مجلسه بالكعبة ، وها هو ذا يرافق عمه فى رحلته بالتجارة إلى الشام ، رغم تألمه من ذكريات وفاة أخيه عبد الله فى رحلة مشابهة ، وتطيره منها ، ولكن كيف لا يرق قلبه للصبى المثخن بجراح الفقد ، وهو يتعلق ببردته متوسلا ألا يتركه فى مكة وحيدا .

.. سافر محمد رحلته الأولى إلى الشام ، وحين أناخت القافلة لتستريح العير والرجال، بجوار غار يطل على الطريق يقيم فيه راهب ، ما كاد يراهم حتى هرول إليهم تاركا صومعته على غير ما عودهم ، فلقد كانوا فى السابق يحادثونه ويحادثهم دون أن يظهر نفسه لهم ، ولكنه هذه المرة غير من عادته ، وتقدم ينشد أباطالب ، وقد أخذ يحدق فى محمد باهتمام ، ثم سأله :

ـ أهذا الصبى ، ابنك يا أخا العرب ؟ .
ـ حقا هو ابنى .
ويحمر وجه الراهب من الغضب ، وهو يسأل أبا طالب زاجرا ، يطالبه بقول الحقيقة :
ـ أهو نكاحك ؟!.
ـ لا .. فهو ابن أخ لى مات ، والصبى بعد جنين فى بطن أمه .
ويتهلل وجه الراهب بالبشر ، و يهمس وكأنه يحادث نفسه :

ـ هو إذن اليتيم الذى يكفله الله ، ويعصمه .
ثم طلب الراهب من أبى طالب راجيا ، أن يقبل مرافقته هو والصبى إلى صومعته ، ويستجيب أبو طالب ، وهو فى دهشة من حال الاضطراب التى أصبح عليها الراهب .
فى الغار يكشف الراهب بيد مرتعشة عن ظهر محمد ، ثم يرد الرداء بسرعة ، وهو يهتف :
ـ قدوس ، قدوس ، إنه لهو ، وهذا هو الزمان الذى يظله.
ثم استدار إلى أبى طالب ، وقال فى رجاء :
ـ اكتم أمر الفتى ، وعد به إلى قريتكم ، فإنه لو علم به اليهود لقتلوه .
واستأذن أبو طالب من رفاقه فى التخلف ، لعدم القدرة على مواصلة السفر لمرض طارئ ألم بابن أخيه ، وأوكل لأحد رفاقه أن ينوب عنه فى تجارته ، ثم عاد بمحمد إلى مكة ، والخوف عليه يملأ عليه حناياه .
.. ولم تتم سفرة محمد إلى الشام .

مع مرور الأيام ..
عمل محمد برعى الأغنام ليكتسب قوته ، فعمه أبو طالب كان كثير العيال ، محدود الرزق ، ورغم معاشرته لرعاة من كل الطبائع ، فإنه كان لا يفعل فعلهم ، فهو أقرب إلى العزلة منه إلى الإقبال على مباهج الحياة ولهوها ؛ فلقد كانت أسعد لحظاته ، هى تلك التى يخلو فيها إلى نفسه بعد أن يفرغ من متابعة حركة غنيماته ، حين تهدأ لانهماكها فى الطعام ، أو حين ركونها إلى النوم ؛ هنا ينصرف إلى تأمل السماء : بروعة زرقتها ، وتوهج شمسها ، ومرور كسف السحاب شفيفة تمشى هونا فتحجب الشمس فى وضح النهار ، أو النجوم والقمر فى وقب الليل ، ويتدبر فى الأرض وما عليها من : جبال ورمال وصخور وشجر ورياح ومطر وكلأ ، ولعل ذهنه كان يجول متأملا فى ما حوله ، باحثا فى روعة خلقه ، وعظمة الصانع القدير الذى قدر وفعل ، فجعل الليل ثباتا والنهار معاشا ، وباليقين فإنه حين يصل إلى هذا الحد من التأمل ، يتساءل : هل يعقل أن تكون تلك الأحجار الصماء العمياء التى يتقرب إليها أهله زلفى ، هى ذاك الصانع لكل ما حوله من سماء وأرض ومخلوقات ، أو حتى تصلح لتكون بصممها وعماها وعجزها واسطة بين قومه وبين الله ؟! .
: محال ، أن تكون هى الصانعة ، أو الواسطة التى تقربهم إلى الخالق ، فهى أعجز من أن تهش الذباب عن أنوفها ، أو تبعد العير عن البول على أقدامها !! .
ولقناعة محمد بما أوصله إليه تدبره ، كان لا يقبل على الطقوس التى يقيمونها تبركا وتمسحا بالأوثان ، بل كان شديد النفور منها لا يقرب أماكنها ، ولا يسجد لها ، وهو نهج رباه عليه من اصطفاه منذ الصغر ، فكثيرا ما ألحت عليه عماته ليشاركهن أعيادهن التى يتقربن فيها زلفى إلى أصنامهن ، وكان إلحاحهن إشفاقا عليه ، لخوفهن من أن يكون عزوفه عن حضور تلك الأعياد ، بسبب شعوره باليتم ، لكنه كان يقابل دعوتهن بالرفض ، ولما أجبرنه ذات مرة على أن يصحبهن ، فر هاربا فى رعب من أمام الصنم ، وهو يقسم لعماته بأن رجلا أبيض الثياب ، قد وقف يحول بينه وبين الاقتراب ، ثم زجره حتى يبتعد .
.. أما بالنسبة لأترابه فلم يدهشوا من أفعاله ، فلقد بدت لهم عادية ، فهم يرون أنه ليس مثلهم : فهو لا يسرق لبن الغنيمات ، ولا يجلس فى أماكن اللهو والغناء ، ولا يلعب الميسر ، ولا يشرب الخمر ، ولا يسعى إلى ملاطفة الفتيات ؛ فلم وهو كذلك ، لا يختلف عنهم فى نظرته إلى الأوثان ، فلا يقربها أو يتمسح بها ؟!!.
.. ذات ليلة ألح عليه رفيق من الرعاة إلحاحا شديدا ، فى أن يترك له أمر حراسة غنيماته ، وينزل إلى دور مكة ليلهو فهناك عرس لثرى من أثريائها ، والفرصة سانحة لكى يملأ بطنه بالطعام الشهى ، ويطرب سمعه بالغناء ، ويمتع عينيه بمشاهدة الغيد الحسان ؛ وبعد طول تمنع قبل ، فلقد منعه حياؤه أن يستمر فى الرفض ، فنزل إلى الديار يتلمس أماكن الغناء ، ولكن الله عصمه ،

فضرب على أذنيه فنام قبل أن يرى رقصا أو يسمع نغما ، ولم يوقظـه من النوم سوى وخز أشعة شمس الظهيرة ؛ ولما أعلم صاحبه بما حدث له ، طلب منه أن يعيد المحاولة ، وينزل إلى دور مكـة مـرة أخـرى فيلهو ويسمر ، فلهو أهلها لا ينقطع ، ولكن المعصوم لم يحظ فى ليلته هـذه بـأكثر مـن حظـه فى الليلـة الأولى ، وحين قفل راجعا طلب من زميله ألا يعاود الإلحاح عليه ، فلقد عزم على ألا يعود إلى ذلك مـرة أخرى ، وليذهب رفيقه إذا شاء ليلهو ، وليتركه لشأنه .

ـ 2 ـ

حين تخطى محمد سن الصبا إلى الشبـاب عمل بالتجارة ، وكان فألا طيبا لمن يتاجر لهم ، فيربح الكثير ، وينجز عملـه بإتقان ميزه عن أقرانه ، كما اشتهر بأمانته ، حتى أسمته قريش : الأمين .

كان قنوعـا ، يرضى بالقليـل ، ولم تكـن لـه أحــلام فى الدنيــا وزخرفهـا مـن : غنـى ونفـوذ وجـاه ، ولم يحدث أن تفاخر بعظمة نسبه كغيره من الشباب ، ولقد أثار سلوكه هذا عطف عمه أبي طالب لظنه أن ذاك التواضع مرجعه إحساسه المبكر بافتقاده لنصرة الأب والاخوة ، ولقد سأله يوما :

ـ ألا تفكر يا ابن أخى فى التجارة للأثريـاء حتـى تصـيب بعـض حاجـات الشـباب ، فتتـزوج ، وتصـبح صاحب دار ولك زوجة ؟! .

قال محمد :

ـ ما خطر لى هذا ببال يا عم .

قال أبو طالب وقد امتلأ شفقة على ابن أخيه الذى أورثه اليتم القناعة والرضا :

ـ ألا تتاجـر لخديجـة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فهى امـرأة مـن أوفـر أهـل مكـة شـرفا ومالا ، وهى تستأجر لتجارتها رجالا ليقوموا بها عنها ، فيصيبوا منافع لأنفسهم ، وأنت تاجر أمين ، ذاع أمرك فى القرية كلها ، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لفضلتك على غيرك، وأنـا يـا ابـن أخـى لـو كنت أملك مالا لكفيتك، ولأخرجتك فى تجارة لى .

قال محمد فى تعفف وعزة نفس :

ـ يا عم لعلها أن ترسل لى فى ذلك .

.. وبلغ خديجة ما دار بينهما من حديث ، وكانت قد سـمعت عـن محمــد وأمانتـه، وعـن البركـة التـى تتغشى عمله ، فأرسلت تستدعيه ، وعرضت عليه أن يخـرج متـاجرا فى مالهـا إلى الشـام ، قـال وهـو لا يرفع عينيه عن الأرض حياء :

ـ نعم إنى خارج بتجارتك .

وانصرف بعد أن حياها ، ولم يزد فى الحديث .

.. ولقد أعجبت خديجة منذ اللحظة الأولى ببهاء طلعته ، وتعجبت من شدة حيائه ، واختلافه عن كل من تعاملت معهم من الرجـال ، فهـو غيرهم ، فكأنما هـو من مجتمع آخـر غير مجتمع مكـة الصـاخب بالفساد .

..لما آن لرحلة الصيف أن تغادر مكة إلى الشام ، أرسلت خديجة غلامها ميسرـة مـع محمـد فى سـفره ليقوم على خدمته ، وليصف لها أحواله ، وتعلقت روح ميسرـة بمحمـد فلقـد اسـتراح لبشاشـة وجهـه ، واستراح له أكثر حين ذهب القرشيون قبـل الرحيل إلى أصنامهم يتمسحون بها ، ويطلبون منها البركات ، بينما ظل هو بعيدا ينتظر ، فلقد كان ميسرة مسيحيا يكره نسك أهل مكة .

.. وحين عبرت القافلة أرض الشام، مرت قبل دخولها إلى "بصرى" بصـومعة راهـب كـان ميسرـة يـتردد عليه، فلما أناخوا الجمال لتستريح ، وليستعيد الرجـال بالراحـة نشـاطهم ، وليأخـذوا زينـتهم اسـتعدادا لدخول المدينة .

استأذن ميسرة محمدا فى زيارة الراهب فأذن له ، من غير أن يثقل عليه باستفسار ، وما هى إلا لحظات ، وخرج إليهم الراهب مهيب الطلعة ممصوص العود خشن الملبس، وعلى مبعدة خطوات منه ، سار ميسرة مطأطئ الرأس فى تبجيل يهمس له ، كان من الواضح أن حديثهما الهامس يدور حول محمد ، فلقد اتجهت أبصارهما ثم خطواتهما ناحيته ، ولما جلسا إليه ، بدأ الراهب يتحدث إلي محمد حول أمور مولده ونشأته ، ثم استأذن منه أن يكشف البردة عن ظهره ففعل، وهو غير متعجب، فلقد تعود الناس أن يسمعوا ويروا من الرهبان مثل هذه الأفعال التى تبدو غريبة:ولم لا يريحونهم إذا كان الأمر هينا، والمطلب يسيرا لا شطط فيه؟.

ولما عاد الراهب إلى صومعته متكئا على كتف ميسرة ، صارحه بأن صاحبه فيه من العلامات والشواهد ما يشى بأنه هو النبى المنتظر ، ولم يدهش ميسرة مما سمع ، فلصاحبه أخلاق أهل يسوع ، وإن كان ليس على ملتهم ، فهو غير كل من صحبهم من رجال قريش فى حله وترحاله ، هو أيضا غير كل من تعامل معهم من تجار ، من مختلف الملل والأجناس : إنه إنسان فريد ، ليس مثله أى شخص آخر ، فهو حيى شديد الحياء ، صادق كل الصدق ، لا يرائى أو ينافق ، فهو يرى بذات الوجه الذى يواجه به من يواجه فى السر والعلن ؛ متواضع وكأنه ليس من أعز أنساب قريش ، حتى أنه لم يكلفه ـ وهو العبد المطيع لبنان سيده ـ بأى عمل يشق عليه ، بل هو يساعده فى عمله ، ويشعره بأنه هو أيضا سيد له من الكرامة والحقوق ما لسائر أفراد القافلة ، فإذا ما أدى عملا لم يسأله لماذا أداه على مثل ما أدى ، وإذا لم يؤده ، لم يزجره ، ولم يلمه على عدم أدائه له ، بل هو لا يسأله عنه أصلا ، لأنه إذا كانت هناك ضرورة لأدائه ، أداه هو فى صمت وإتقان ، وكأنه مسئوليته هو ؛ هو رحيم رءوف بالجميع ، حتى بالدواب ، فهو يوصى بها خيرا ، ويغضب ممن يقسو عليها ، أو يكلفها مالا طاقة لها به ، أو يقصر فى سقياها ، أو إطعامها .

: فما أحقك أيها السيد بأن تكون نبيا صديقا .

أسر ميسرة حديث الكاهن فى نفسه ، حتى أنه كتمه عن صاحبه ، فلقد أمره الكاهن بألا يظهره على أحد فيعجل لمحمد معاداة أهله وعشيرته ، وميسرة يرى بوادر الغيرة منه مضمرة فى نفوس رفقاء الرحلة ، يفضون بها ويظهرونها فى غيبته .

.. وحين بدء البيع والشراء ، لم يهول محمد من شأن بضاعته ويزكيها ، بل عرضها بالحسنى ، فأقبل عليه كل من أراد الشراء وأعرضوا عن غيره ، فباع سريعا وربح أكثر مما كان ينتظر أن يربح ، وحين أراد الشراء ، لم يبخس الناس أشياءهم، ولكنه عرض ثمنا يليق بما يبيعون، فباعوا له بأرخص الأسعار وهم راضون، فأزداد ميسرة حبا على حب لمحمد ، واشتد به الإعجاب حتى بات لا يرى له حياة بعيدا عنه .

.. ولقد أفصح ميسرة عن مشاعره هذه ، لسيدته خديجة حين عاد ، وسألته عن محمد ، وهى تعرف فى عبدها الصدق ، فقال لها :

ـ لم أر يا سيدتى بشرا بمثل خلق محمد ، حتى ليبدو كالزهاد ، ولقد تمنيت لو أن رحلة العودة لا تنتهى ، حتى لا أفارقه .

.. وحين جلست خديجة إلى محمد ، حدثها فى إيجاز وتواضع عن تجارتها وما تم فيها ، ولم يختلف حديثه عن ما قال به ميسرة ، وإن لم يزك نفسه ، فيتحدث عن جهده وتميزه عن أقرانه ، ثم وضع كل ما حصد من مال بين يديها، فلم يقتطع لنفسه أجرا ، برغم أن له نصيبا منه اتفقا عليه ، فلم تملك خديجة إلا أن تعبر عن عرفانها وتقديرها ، فأغدقت له العطاء ، وهى راضية كل الرضا .

ـ 3 ـ

.. ازداد قدر محمد عند خديجة ، بعد ما سمعت ورأت ، فهى لم تجد ـ على مدى ما تعاملت مع التجار والرجال ـ من هو على هذا القدر من الصدق والزهد والحياء والأمانة ، ولم تستطع أن تخفى مشاعرها ، فنادت ميسرة وقد جاشت عواطفها ، وقالت له :

ـ لقد صدقتنى الحديث يا ميسرة فنعم الرجل محمد .
ثم كافأته بصرة من المال ، وانصرف ميسرة وهو يقول لنفسه : والله إن معرفتك يا محمد كلها خير .
.. ولم تكتم خديجة حديث الإعجاب بمحمد عن صويحباتها .
.. ولم يخف محمد عن عمه أبى طالب إعجابه بخديجة ، وبنبلها ، وعفتها ، ورجاحة عقلها .
قالت لها صاحبتها وهى تحاورها :
ـ لماذا لا تتزوجين منه ، وأنت مطلقة ، ولا رجل لك منذ سنوات ، بل أنت رافضة لكل من تقدموا لك ، لا يعجبك منهم عاجب ، ولم تتحدثى عن أحد منهم بمثل ما تحدثت عن محمد ، وهو من أكثر بطون قريش نسبا ، وأعزهم منزلة ، وأكثرهم شرفا ، وهو الصادق الأمين ، فإن هو أرادك لنفسه ، فلا مطمع له فى جاهك ، ولا كثرة مالك ، ككل من تقدموا إليك من رجال قريش .
.. وقال له عمه أبو طالب :
ـ يا ابن أخى إنك إن أردت نكاحا، فلن تجد من هى خير من خديجة ، فهى من أشراف قريش، عزيزة النفس، كريمة النشأة ، فلماذا لا تطلبها لنفسك ، فتفوز بالخير والنعمة ؟ .
ولم يمانع محمد فى الزواج من خديجة ، وذهب أبو طالب إلى أبيها فخطبها لابن أخيه .
ولم تمانع خديجة فى الزواج من محمد .
.. وتزوج الأمين من زهرة نساء قريش .
وازداد قدر محمد عند القرشيين ، فالثراء عندهم هيبة وسلطان ، والفقر مذلة وهوان ، ولم لا يعظمونه وقد ملك ثروة خديجة بزواجه منها ؟!.
ولكن الأمين تعفف عن مال زوجه ، ولم يفعل فعلهم ، وفضل أن يجوب الأسواق على قدميه متاجرا فى القليل مما يملك ، فهذا اكرم له من أن يمد يدا إلى مالها هى .
كانت قريش تنظر إلى تعففه متعجبة ، وتتهامس بأنه تظاهر ، فلم يكن يدور بخلد أى منهم ، أن هناك من يمتنع عن إغراء المال ، وإن صمد فلأيام معدودات ؛ لذا سعت إلى الثرى الجديد متوددة ، فأصر أثرياؤها على دعوته إلى مجالسهم ومنتدياتهم ، ولكن سرعان ما عافتهم نفسه ، وضجر من حياتهم ، وسفه أفعالهم لسخفها وهمجيتها ، وتدنيها إلى مستوى الهيم .
ترك محمد قريشا تعمه فى غيها ، وارتقى جبل حراء إلى الغار ، حيث كان يتعبد جده عبد المطلب ، فوجد فى وحدته بالغار راحة وصفاء ، لم يجدهما فى الأخلاء بمكة .

ـ 4 ـ

أتاه أمر ربه : أن ارفع القواعد من البيت .
شمر الخليل عن ذراعيه ، نادى ابنه ، وراحا يحملان الأحجار من الجبل ، ويعملان بهمة فى بناء الكعبة ، وأخذ البناء فى الارتفاع مرتويا بعرق الخليل إبراهيم ، وابنه إسماعيل ، عليهما السلام .
.. وتمر السنوات متلاحقة .
.. وتتوالى الأمم .
وتكتسح السيول القرية .
ويتهدم جزء من بناء الكعبة العتيق .
.. فيسارع أحفاد الخليل بالترميم والبناء ، فهى المكان الأعز والأحق بالرعاية والاهتمام .
.. وها هم أولاء القرشيون يعيدون بناء ما تهدم من الكعبة ، ويتنافسون على من يكون له شرف المشاركة فى العمل ، وكل بطن من بطونها يريد أن يتميز عن غيره ، ليفاخر بما سينال من مجد .
.. وأى مجد يدانى مجد المشاركة فى بناء بيت الله العتيق .
وقد سارع الحكماء منهم وتعاهدوا ، على أن يكون العمل بين القبائل : عدلا وارتضاء ، تجنبا لإراقة الدماء .

.. بالحب كان يرتفع البناء .
.. ولكن ، هل لإبليس أن يرضى بأن تمضى الحياة فى سلام ، ويكف عن وسوسته للناس بالشر ، فيفسد حياتهم ؟! .
.. وإذا كف ، ماذا سيكون دوره فى هذه الحياة ؟ .
وما جدوى وجوده ؟ .
وكيف ينكص فى قسمه لرب العالمين ، بأن يطارد البشر ـ بالوساوس ويبذر فيهم الغيرة والبغضاء ، ويفقدهم العقل ، فيسهل عليه أن يحل بينهم الكره والبغض ، ويقودهم إلى ظلمات الكفر والضلال ، ليصل بهم إلى مناه ، فتمسى حياة الإنسان خراب ودمار ، ويجعل مآلهم إلى النار ، فلا يتحقق لهم خير فى الدنيا أو الآخرة .
لقد كان إبليس يرى ما يحدث ، وهو يتقافز حولهم ، ويتلوى من الألم ، مما يرى من تآخ ؛ وكأنما عاد الزمن إلى الوراء ، ليواجه ثانية آدم الذى حصن ونبئ ، فأصبح لا سبيل له عليه .
ولكن خلق إبليس يجعله لا يكف عن المحاولة ، ولا ينى عن النزغ بينهم ، فيوسوس ، ويوسوس ، ثم يزداد هياجا وغضبا لعدم استجابتهم ، فيئز أزا ، لكنه لا يقنط : فلا بد وأن الفرصة آتية ، ولو بعد حين ، ومهما بعد هذا الحين .
.. اكتمل البناء إلى موضع الحجر الأسود ، وتسابقت القبائل ، كل قبيلة تريد أن تحظى دون غيرها بشرف رفع الحجر وتثبيته فى موضعه ، ويحتدم التنافس ، ويطول النقاش والتناظر تفاخرا بقديم الأمجاد ، ثم يبدأ التراشق بالألفاظ ، ليتحول إلى تهديد ونذير ، وقد لون الغضب بالقتامة كل شئ ، ويروح إبليس اللعين ينفخ مسرورا فى نار الخلاف ، فلقد أصبح جنى الثمار دان ، فما أسهل انقياد أبناء آدم لأوامر إبليس فى لحظات الغضب ، ويزداد إبليس نشوة ، فيروح ينفخ .. وينفخ ، فيغيب العقل ، وتسيطر همجية الشر ، وتنفلت الأبدان من سيطرة العقول ، فتستل السيوف من أغمادها ، وتتنادى القبائل للقتال .
ويصرخ إبليس من النشوة ، وقد رأى أن الدماء سوف تسيل أنهارا ، فالقتل يوشك أن يعمل ، والخراب يدق أبواب مكة ، بل ويدكها دكا .
.. ولأن البناء لله .
.. ولأن الأمر جميعه بيد الله تعالى ، نطق صوت الحق عاليا مدويا محذرا بلسان أبى طالب ، فأخرس أصوات إبليس التى راحت تنطق بينهم بالضلال :
ـ يا أهل قريش أبعد أن تعاهدتم على بناء بيت الله إكبارا لحرمته ، أراكم ، وقبل أن ينتهى البناء، تسعون لانتهاك هذه الحرمة، وتدنيس أرضه بدمائكم، أليس بينكم رجل رشيد ؟!.
.. وكأنما كانت صرخة أبى طالب زلزالا ، هز القلوب الغافلة بعنف فأفاقت على ما يحاك لها ، وما هى مساقة إليه من خراب ودمار ؛ هوت الأيدى إلى الأجناب ، وأعمل العقل ، وفكر الحكماء وتدبروا ، ثم كان القرار :
ـ لنرضى بما يحكم به بيننا أول رجل يفد على الكعبة .
.. وكان محمد أول من جاء .
وهلل الحضور فرحين مستبشرين :
ـ الأمين هو الحكم ، فأحكم بيننا ، أينا يكون له حق وضع الحجر الأسود فى مكانه من البناء ؟.
قالوا ما قالوا ، وأطبق صمت عميق على الجميع ، وعلقت الأبصار بشفتى محمد فى ترقب ، ووسوس لهم إبليس :
: حقيقة قد ارتضيتموه حكما ، وتسمونه الأمين ، ولكن أليس هو من آل هاشم ، فيفضلهم عليكم ، ويختصهم بهذا المجد ؟.

سكت محمد قليلا ، فتوترت الأعصاب قلقة ، واشرأبت الأعناق فى توجس ، لكن صمته لم يطل ، فلقد قال :

ـ هلموا إلى بثوب .

وسرعان ما تناثرت من حوله الأثواب ، رغم دهشتهم من طلبه ، فهو أهون من أن يحكم بتفضيل إحدى القبائل على غيرها ، أو يطلب من بنى هاشم تثبيت الحجر .

مد محمد يده وتناول أقرب ثوب إليه ، وفرده على الأرض، ثم اتجه إلى الحجر الأسود فحمله ، وصرخ إبليس يستنفرهم :

: يا لضيعة عقولكم ، لقد سخر منكم محمد وحمل الحجر وحده ، لتفوز بنى هاشم بالفخار بين العرب .

وقبل أن تستنفر الأبدان ، وضع محمد الحجر فى وسط الثوب ، فهدأت النفوس

المستثارة ، وإن ازدادوا دهشة مما يفعل ، قال :

ـ لتختار كل قبيلة رجلا من رجالها .

تفرقت القبائل ، كل قبيلة على حدة ، تتشاور ، ثم خرج من بين كل قبيلة رجلا ، فقال لهم محمد :

ـ تحلقوا حول الثوب ، وليمسك كل رجل منكم بأحد أطرافه .

نفذوا ما قال ، وتجمع الرجال ملتفين فى دائرة حول الثوب، ثم أمسك كل واحد بقطعة منه ، ولما فعلوا ، قال :

ـ لترفعوا جميعكم الحجر لأعلى ، ولتأتونى به .

ورفع الرجال الثوب ، واتجهوا إلى حيث موضع الحجر ، فصعد المعصوم وتناوله فثبته فى مكانه ، كل هذا وأعين الحاضرين تبرق بالإكبار والتقدير ، لابن عبد الله بن عبد المطلب ، وحين انتهى ، ارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل .

.. وتصافحت الأيدى بالسلام .

.. وأعيدت السيوف إلى أغمادها .

.. وعادت السواعد ترتفع بالبناء .

وهرب إبليس مدحورا أمام حكمة المعصوم .

ـ 5 ـ

خلق الله آدم ، ثم نفخ فيه من روحه ، تحرك المخلوق الجديد وقد دبت فيه الحياة ، أمر الله الملائكة أن تسجد له تقديرا وتكريما ، سجدت الملائكة أجمعين إلا إبليس فقد عصى ـ واستكبر ، وتذمر قائلا :

ـ أنا خير منه ، خلقتنى من مارج من نار ، وخلقته من طين .

أنزل الخالق العظيم غضبه على إبليس :

ـ عليك لعنتى إلى يوم الدين .

أصيب إبليس برعب شديد ، فلم يكن يتوقع أن يغضب الرب هذه الغضبة الشديدة ، من أجل مخلوق شائه من طين ، خر إبليس ساجدا لله ، توقعت كل المخلوقات أن يطلب الصفح ، ويتوب عن ذنبه ، ولكن الحقد والكراهية تمكنا من قلبه ، وأعمياه عن الصواب ، توسل إبليس ذليلا يقول :

ـ رب لا تهلكنى للحظتى ، أمهلنى إلى يوم يبعثون .

.. ولأن إبليس خلق ليكون أداة اختبار لآدم وبنيه من بعده ، استجاب الخالق لتوسله ، فأمهله قائلا :
ـ اذهب فأنت من المنظرين إلى اليوم المعلوم .
.. ولكن كان الجزاء متوقعا ، فطرده رب العالمين من الجنة مذموما مدحورا ، وتوعده الله تعالى بالعذاب ، فأصبح إبليس من الملعونين .
قال إبليس فى غيظ :
ـ فبما أغويتنى ، لأقعدن لآدم وحواء وأبناءهما صراطك المستقيم ، ولآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين .
انتابت آدم مشاعر الخوف من توعد إبليس ووعيده ، وتعجب متسائلا : لم يضمر لى إبليس كل هذا الكره ؟! .. ثم أردف قائلا :
ـ إنى إذن من الهالكين .
.. لكن الخالق العظيم أنزل السكينة على قلبه ، حين حذر إبليس من التمادى فى وصف قوته وقدرته على الإفساد قائلا:
ـ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من تبعك من الغاوين .
ثم حذر آدم من إبليس قائلا :
ـ يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى .

ـ 6 ـ

كان آدم كلما تجول بين أشجار الجنة ليقطف من ثمارها ما يحب ، يتجنب قدر طاقته أن يقترب من الشجرة التى حرمها الله ، وهو لا يفتأ يقول لنفسه ..
: ويلك يا آدم أحذر فمن هذه الشجرة سيجىء إغواء إبليس .
.. ويوما من بعد يوم ، كان التحذير يخفت ، وبدأ النسيان يزحف شيئا فشيئا ، ووجد إبليس أن اللحظة قد اقتربت أسرع مما كان يتوقع ، وأن عليه أن يسرع بالعمل ، فاقترب من حواء وآدم هاشا باشا ، وعجبا من كل تلك البشاشة التى يبديها لهما ، قال إبليس وهو يمسك بأغصان الشجرة المحرمة ، ويقربها منهما فى إغراء وإغواء :
ـ ما بالى أراكما تبتعدان عن هذه الشجرة ، فلا تأكلان منها ؟!.
قال آدم فى تخاذل :
ـ لأننا نهينا عن ذلك .
قال إبليس وقد ملأ صوته بالأسف والحزن :
ـ يا لضيعة أحبائى ، إنها شجرة الخلد ، من يأكل منها لا يموت أبدا ، فإذا أكلتما تكونان من الخالدين .
ونظرت حواء إلى الشجرة .
ونظر آدم .
.. وكانت نظراتهما تشى بالرغبة فى أن يأكلا منها ، وتساءل آدم فى استسلام :
ـ أحقا ما تقول ؟!.
تنهد إبليس وقد ملئ حبورا ، وأقبل عليهما يقاسمهما انه لمن الصادقين ، والأمر لن يستغرق وقتا طويلا ليدركا صدقه إذا ما أكلا .
.. وأكلا .
.. وضحك إبليس طويلا .. طويلا فى نشوة المنتصرين ، ثم قال هازئا من آدم :
ـ ألا ما أضعفك يا غريمى .
.. ثم قهقه .. وقهقه ، حين تكشفت سؤتا آدم وحواء ، فطفقا يخصفان عليهما من أوراق الجنة ليواريا ما انكشف ، وكان الله قد ستره ، لكنهما فضحاه بنسيانهما .

لقد انهزم أبو البشر فى أول مواجهة .
.. وانتصر إبليس .
انهار آدم ساجدا لله تائبا مستغفرا ، طالبا رحمة الرحمن الرحيم ، وقد ملئت نفسه بالندم واللوم على ما فرط فى جنب الله .
وعفا العفو الرحيم .
.. وكان لابد من جزاء ، لتكتمل الإرادة الإلهية :
وطرد آدم وحواء من الجنة ليعمرا الأرض .
.. وعرف إبليس موقع الضعف فى آدم ، وأنه خلق نسيا .

- 7 -

حين هبط آدم وحواء إلى الأرض ، أدركا أنهما عادا إلى الطين الذى كانت منه النشأة الأولى .
ولكن آدم لم ينس أن هناك من أغواه ويترقبه بالغواية والهلاك ، وكيف له أن ينسى وقد أخرجهما بوسوسته من الجنة ؟!!.
ولم تنس حواء مرارة تجربتها الأولى مع عصيان أوامر الله ، وما كانت ترضى أن تعرى مرة ثانية .
.. لذلك لم تذكر لهما خطيئة أخرى .
كان حصنهما الحصين ذكر الله : يذكرانه فى السر والعلن ، وإذا ما أراد إبليس أن يتقرب إليهما ، استعاذا بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فتضرب الاستعاذة حولهما سورا يتحصنان داخله من وسوسته ، فلم ينجح إبليس رغم كل محاولاته وتغييره فى أساليب الولوج إلى النفس ، فى إيقاعهما فى إساره ، ولم ينتصر عليهما ثانية ، وكيف له ذلك ، وهما فى حفظ الله ؟.
أصيب إبليس بالقنوط ، واشتدت نقمته وكراهيته لآدم وحواء ، ولكن فى لحظة واحدة انقلب يأسه إلى أمل ، وحزنه إلى سرور ، فلقد سمع حواء تقول لزوجها إنها قد حملت ، وأنها على وشك أن تلد أول الخلفاء .
انتعشت الكراهية فى إبليس ، وقد تأكد من صدق حواء ، حين تسمع إلى أخبار السماء ، فعرف أن الله سيرزقهما بتوءم : ذكر وأنثى ، وأنه سوف يتعاقب الحمل ، وفى كل مرة يرزقان بالولد والبنت ، ليتزوج كل ذكر من أنثى البطن الآخر ، ويتناسل الآدميون ، وتعمر الأرض ، ويكثر البشر ، وتكثر الخطايا .

ظل إبليس يحصى اللحظات مترقبا فى حقد متلظيا ، راغبا فى التنفيس عن كراهيته لأولئك القادمين ، ويزداد شبقه لعبور الحاضر إلى المستقبل ، حين يعرف من خبر السماء أنه سيكون لآدم أحفاد يعدون بالملايين ، ويئز فى نشوة يقول :
- والله لأغوينهم أجمعين ، ولأوردنهم موارد التهلكة ، ولأجعلن النار مثواهم ، ولبئس القرار .
.. كان آدم يعلم أن إغواء إبليس سوف يطارد أولاده وذريته إلى يوم الدين ، فحذر بنيه من إبليس وقبيلته ، ولم يبخل عليهم بعلم ، فعلمهم ما تعلمه من الملائكة ، ونبأهم بما نبأه به الله تعالى ، ولكن ماذا يستطيع ، وناموس الحياة يقول بأن هناك دائما : للخير أناسا ، وللشر أناسا .
.. واستطاع إبليس أن ينفذ إلى دم قابيل ، وأخذ يبذر فى نفسه بذور الغيرة ويغذيها بالأوهام والأكاذيب ، حتى نمت وتوحشت ، فأصبح قابيل وليا من أولياء الشيطان ، فلا يسمع إلا ما يريد له أن يسمعه ، ولا يرى إلا ما يشاء له أن يرى .
وجاءت لحظة الدفع للخطيئة الكبرى .
ودفع إبليس قابيل لقتل أخيه هابيل : فقتله !!.
واهتزت السماوات ألما لحادث القتل الأول ، فمن القاتل ، ومن القتيل ؟.

: القاتل قابيل ، والقتيل هابيل ، ابنا نبى الله آدم ، وبكارة البشر !!.
ويعلم الأب .
وتعلم الأم .
.. ويتمزق الفؤادان ألما ، من عظم الجرم ، وفداحة الإثم ، ويرفع آدم كفيه إلى عنان السماء متوسلا ، ودموعه تنساب مدرارا ، فما أشق أن يرى الأب أبناءه يقتل بعضهم بعضا ، قال :
ـ رب أنزل على حواء وعلى صبرا ، ولتحل بنا رحمتك يا أرحم الراحمين .
ثم أسرع آدم إلى بنيه يجمعهم ، وهو يستشعر الخطر المحدق بذريته ، فلقد أدرك أن إبليس قد عاد إلى الانتصار مرة أخرى ، قال لهم :
ـ أى بنى إن الشيطان لكم عدو مبين ، ولكم فيما حدث لى ولأمكم عظة وعبرة ، وفيما حدث لأخويكم نذير شؤم ، فانتبهوا إلى عدوكم ، الذى سيظل يتربص بكم الدوائر ، ليفسد حياتكم بالندم على طاعتكم له ، فهذا قابيل قد فعل فعلته وفر هائما بين الجبال نادما على ما جنته يداه ، مطاردا بالعذاب ، ممزق الفؤاد ؛ وهذا هو حصاد طاعة إبليس ، فالجانى يلقى عذابه عن الخطيئة مرتين : مرة فى الدنيا ،ومرة فى الآخرة ، وهذا ما يريده إبليس بكم ، وهذا ما أقسم أنه فاعله ، ولكن الله أعطاكم سبل الاختيار ، ووضح لكم طريق الانتصار عليه ، فإياكم أن تعمى منكم القلوب والأبصار ، فلا تنتهوا عما نهاكم الله عنه ، وتذكروا أن إبليس محيط بكم ، فانتبهوا لهذه الحقيقة حتى لا ينقض عليكم ، واعلموا أنه لا سبيل له عليكم ما دام الله حيا فى قلوبكم ، حاضرا فى أفعالكم .

ـ 8 ـ

ومرت السنوات وتعاقبت ، فصارت قرونا .
وتكاثر أبناء آدم وحواء .
وسعى إبليس بالشر ينشره بينهم ، فلقد بهرتهم ملذات الدنيا فراحوا يعبون منها عبا ، وانشغلوا بأنفسهم ، ونسوا الله .
.. وانغمست البشرية فى لذات تعافها الحيوانات ، وكثر الظلم حتى صار ظلمات .
وها هى ذى الرسل تترى ، مذكرة ومحذرة ، فتصحو القلوب الطيبة ، وتظل القلوب الخبيثة تعمه فى غيها ، ولكن القلوب التى أفاقت ، لا تلبث أن تغفو ، وتستسلم فى لحظات غفلتها لأزيز الشياطين ، فالحكام من ملوك وكهان ورهبان سعداء بما هم عليه من سلطان ، يسخرونه فى العب من المتعة أى كان مصدرها ، حتى أصبحوا أشر من يعيش على وجه الأرض !.

.. وجاء موسى عليه السلام معاضدا بأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، يدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ، والعودة إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ولكن فرعون أبى الهداية وازداد طغيانا وكفرا ، إلى أن كان نصر الله وعبر موسى بقومه بحر الظلمات إلى بحر الهداية والرشاد ، وغرق فرعون وجنوده فى اليم .
.. ولكن إيمانهم لم يلبث إلا قليلا ، وعادوا يغوصون فى شركهم ، وضلالهم القديم !.
.. وبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام آية من قدرة الله على الخلق ، فخلقه من غير أب ، دعا اليهود إلى العودة إلى عبادة الله ، وبشرهم برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، فلم يستجب لدعوته إلا قليل من الحواريين والفقراء ، لاقوا من اليهود الأهوال من صنوف العذاب والاضطهاد ، ولما ضاق إبليس من اشتداد الدعوة ، أمر أنصاره من اليهود بقتل عيسى عليه السلام ، ولكن الله رفعه إليه ، وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم .
.. واتسعت مساحة النور باستجابة الناس للتعاليم الإلهية التى حمل أمانتها الذين صدقوا برسالة عيسى عليه السلام وساروا على دربه ، ولكن سرعان ما نزغ إبليس بينهم ، فجعلهم شيعا وأحزابا ، كل فريق يختلف ويتناحر مع غيره من الفرق الأخرى ،

كما زين لهم حب السلطان والتحكم فى الخلق ، فخفت صوت الزهد فيهم ، وضاع الحياء من بينهم ، وسيطرت عليهم الماديات وقادتهم الشهوات ، وسارت الغلبة من الرهبان على درب من سبقوهم بالمعصية من الأحبار ، فأخفوا من الإنجيل ما سبق وأخفى من التوراة ، واصطنعوا لأنفسهم قدسية ما هى لهم ، ولا أمر بها الله ، ولكنهم ابتدعوها ، فدخلوا ، وأدخلوا الناس معهم فى ظلمات الشرك والضلال .

.. وعاد إبليس يجأر منتصرا ، فغرقت الأقطار المسيحية ، فيما هى غارقة فيه باقى الأقطار ، من مادية مفرطة فى طلب الملذات ، ونسوا أن السيد المسيح ﵇ كان مترفعا عن الدنايا ، وكان حصورا .

- 9 -

أما من لم يستجيبوا لدعوة موسى ولا عيسى ، من أهل الجزيرة العربية ، والقرشيون منهم خاصة ، فبقوا على ما كان عليه الآباء والأجداد من حنفية إبراهيم ﵇ ، لكن إبليس أدخلهم فى الشرك ، بأن زين لهم أن يتخذوا من الأصنام وسطاء بينهم وبين الله ، ثم أنساهم ذكر الله ، فأصبحت الغلبة تعبد الأصنام من دون الله ، وأصبح إبليس يحيا بينهم نهارا جهارا .

.. ووسط هذا التدنى تتأرجح ما بين الشرك والكفر ، بدأت نجوم شاحبات تبعث بنورها ، ينساب باحثا عن سبيل يضئ تلك الظلمة الظلماء التى عمت البشرية ، إرهاصا وتبشيرا بقرب تحقق وعد الله برسول يأتى من بعد عيسى ﵇ اسمه أحمد ، وسمع القرشيون قولا فى أصنامهم، مثل ذلك الذى قاله الجد الأكبر إبراهيم﵇:

- والله إن أصنامكم لا تغنى ولا تسمن من جوع ، ولا تستطيع لكم ضرا ولا نفعا ، ولا تستطيع دفع الأذى عن نفسها .

.. ثم ظهر من بينهم من هجر وثنيتهم إلى المسيحية ، كورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وغيرهما وإن كانوا قليلا ، ولقد شجعهم على إعلان عقيدتهم ، ضعف السلطة فى مكة ، فبعد وفاة عبد المطلب تصارع القرشيون على الزعامة ، ولم تجتمع لهم كلمة !!.

كما ظهر من ترك كل ما يعبد الناس ، واتجه إلى البحث عن الخلاص فى وحدانية الإله ، كزيد بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب ، ولقد لاقى زيد من قريش كل صنوف المهانة، مما دفعه للهجرة سائحا فى بلاد الله، لا يقر له قرار ، ولا يكف عن البحث عن نور يرشده إلى طريق الوحدانية ، حتى ورد الشام والتقى بعالم من علماء يهود ، فسأله عن اليهودية ، فقال له :

- إنك لا تكون على ديننا ، حى تأخذ بنصيبك من غضب الله .

قال زيد لليهودى :

- والله ما خرجت من دارى ، ولا هجرت دين أهلى إلا خوفا من غضب الله ، وبحثا عن طاعته ورضاه .

قال اليهودى :

- ما يقول قولك هذا إلا الحنفية .

قال زيد مستبشرا فى لهفة من أتعبته نفسه بحثا عن اليقين ، ويتعجل لها أن ترضى وتهدأ :

- وما الحنفية ؟.

قال اليهودى :

- هى دين إبراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا .

قال زيد فى رجاء :

- ألا علمنى دين إبراهيم ؟.

قال اليهودى :

ـ ما بقى أحد يعرف عن دين إبراهيم .
ترك زيد اليهودى ، وسار يحدوه الأمل فى أن يجد عند النصارى ما لم يجد عند اليهود ، ذهب إلى الرهبان فى الكنائس والمغارات ، يسألهم عن دينهم ، فلم يجد غير قول واحد :
ـ انك لا تدخل ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله .
ارتاعت نفس زيد : فهل هنالك من يسعى إلى أن تصيبه لعنة الله ؟!!.. وهو ما خرج إلا بحثا عن رحمة الله .
ولما أفصح بخوفه ، قال له الراهب :
ـ إنك لا تجد هذا إلا فى دين إبراهيم ، ما كان يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما أحد على دينه الآن .
.. عاد زيد إلى مكة ، وأعلن الناس بقوله :
ـ اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم .
واعتكف فى الكعبة مبتعدا عن حياة أهلها ، ولا يسمع منه غير قولة يقولها ، ولا يحيد عنها :
ـ اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكننى لا أعلمه ، ولا أقنط من رحمتك .
.. ثم يخر ساجدا لله الواحد ، راجيا أن يطول به العمر ، فيخرج من جديد باحثا عن دين إبراهيم ، فلعله واجد من يرشده .
ويرتاع إبليس ..
وينفض فى هياج شديد ، متسائلا ..
: ألا من استسلام كامل لى ، ألا من طاعة شاملة كاملة ؟!.
.. وتدوى الحقيقة الأبدية فى الوعد الحق الذى أعطاه الله تعالى لبنى آدم ، تمسك بخناق إبليس وتهصره هصرا : " إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من تبعك من الغاوين ".

ـ 10 ـ

كان محمد يكره عبادة الأوثان ، كما كان يكره الكهان والرهبان ، لأنه يعلم أن أكثرهم أنصار لإبليس ، ينتصر بهم على الخير فى الإنسان ، وكان يعجب إذ يراهم بين الأقوام مهابين مجابى الطلب ، ولهم من السيطرة على الأفئدة ما يحمل الناس على الخوف منهم والوقوع فى إسارهم ، ولم لا ، والشياطين تحمل إليهم أخبار الغيب التى يتسمعون إليها من السماء ، فيفتنون بها الناس ، ويسيطرون عليهم ، وما أسهل أن تملك فؤاد جاهل يعبد حجرا أو نجما ، أو خلقا من خلقا الله ، ويخاف أن يطرح صنمه أرضا ، فى حين يطرح جسد غريمه ، ويهيل عليه التراب .
.. وبينما كانت قريش تتردى فى أميتها وجهالتها ، وقد أصاب تجارتها البوار ، وأصاب الجفاف صحرائها ؛ كان محمد يعلو فى قدره ، ويسمو فى خلقه بين قومه. .. وأصابت الفاقة عمه أبا طالب ، فلقد جفت ضروع نوقه وغنمه ، وركدت تجارته ، ولحقه ما أصاب أهل مكة من جدب ، وتحركت الشفقة فى قلب الشفوق ، فذهب محمد إلى عمه العباس يستحثه على مساعدة أبى طالب ، واتفقا على أن يكفل كل واحد منهما ابنا من أبنائه الكثر ، ليخففا عنه ولا يجرحا مشاعر الكرامة فيه .
وتحدث محمد إلى زوجه خديجة فأقرته على ما اعتزم ، وامتدحت سلوكه ، وحين صحب محمد على بن أبى طالب إلى داره ، رحبت به خديجة كل الترحيب ، واستقبلته وكأنه صغير من صغارها عاد بعد غيبة إلى أهله وداره .
لقد كانت خديجة منذ عاشرت محمدا تكبره كل الإكبار ، وتمتدحه أمام الجميع ، وكان إذا ما جاء ذكر لاسمه فى حديث عابر توردت وجنتاها ، وانفرطت عواطفها من شدة الوجد ، وقالت :
ـ محمد الأمين حفظه الله لأهله .

.. وكثيرا ما راجعت نفسها خجلى مما تظهره ، وكثيرا ما لامتها صويحباتها على هذا الإظهار للحب الذى يفسد عليهن الرجال !.

: ولكن هل زوجها كغيره من رجال قريش ؟!!.

: محال فهو ليس مثلهم أبدا ، فهو له خلقه النبيل ، وتصرفه المحمود ، فكيف لهن أن يدركن ما تتكلم عنه .

.. لقد عاشرته فوجدت منه خلقا غير خلق من عرفت من بشر ، وإن حضوره للدار لـريح طيبـة ، وإن ذهابه لشوك، فنفسها المشتاقة إليه ما تشتاق إلا بحثـا عن
الطمأنينة والمودة والرحمة ، فهو أول زوج احترم أدميتها ، وامتدح عملها ، بـل شـاركها فيـه ، وهـو مـن أحيا شعورا كان قد مات ، بأنها ركن مهم فى الحياة ، بعد أن جعل رجال قريش نساءهم كسقط المتاع : يأمروهن فيأتمرن ، وينهوهن فينتهين ، ولا رأى لهن ، ولا حق فى مشورة ، يقبلون عليهن حين تكون لهم بهن حاجة ، وينفضون عنهن إذا ما انقضت حاجتهم منهن ؛ وإذا تـذمرت امـرأة ، أو ارتفـع لهـا صـوت يدسون أنفها فى التراب !!.

.. أما هو الصادق الأمين ، فلقـد أحاطهـا بحنـانه ، وشملهـا بعطفه ، وأيقـظ فيهـا كـل مشـاعر الحـب والكرامة ؛ فأقبلت عليه مخلصة وفية ، تغدق عليه من فيض مشاعرها ، فكانت له الأم التى حـرم منهـا فى صغره ، والحبيبة التى تضعه فى عينيها خوفا عليه من نسمة الهواء أو لفح الشمس .

كانت تتمنى لو منحته وجودها كله ، ولم تجد سبيلا تعبر به عن عرفانها إلا أن تكرس حياتها ، لتعطيه البنين والبنات ، فولدت منه القاسم وعبـد اللـه الطـاهر ، وزينـب وأم كلثـوم وفاطمـة ، وهـى التـى لم تنجب من زوجيها السابقين غير ولد واحد ، رغم صغر سنها آن ذاك .

وهى لا تنسى ذلك الحزن النبيل الذى غلف ملامحه حين مات ابناهما : القاسم ، ثم لحق به الطاهر ، فلقد أخفى عنها حزنه ، وأقبل عليها مواسيا ، يهون مشاعر الفقـد التى كانت تحرق منها القلب ..

: فما أنبل حزنك .

: وما أعظم صبرك .

: وما أغلاك من زوج ، جعلت بحسن عشرتك كل ما يضيع مهما عز شأنه ، وعلت منزلته ، يهون ما دمت أنت سالمـا .

انقطع محمـد عن منتديات قريش ، وأكثر من الصعـود إلى غـار حراء لينقطع فيه متعبـدا للـه ، بعـد أن كان لا يتحنث فيه إلا فى شهر رمضان ، فقال القرشيون :

- إن محمدا عشق ربه .

.. ولاحظت خديجة ، أن محمدا قد قل كلامه ، وندر إقباله على الطعام لكثرة ما يصومه من أيام .

وشغلها أمره كثيرا ، حتى أضحت لا تنام الليل ، ولما أمضها الفكـر ، رأت أن تسـأل الكهـان ، فلعـل مـا أصابه سحر قام به الحاسدين ، المستكثرين عليها هناءهـا معـه ، وكونـه قـدم سـعد فى حياتهـا ، فمنـذ تزوج منها ، راجت تجارتها ، وتضاعفت أموالها ؛ وحين استشارته فيما قر عليه قرارها ، غضب غضبة مـا رأته قد غضب مثلها ، وقال ملاوما:

- يا ابنة العم ، ألا تعلمين أن الكهان أنصـار للشـياطين يلجـأون إليهـا فى أعمالهـم ، ويسـتخدمونها فى خداع الناس ، فأعمالهم نجس من نجس .

واعتذرت خديجة للحبيب .

ولم تعد لمثل هذا الحديث مرة أخرى .

الفصل الرابع :

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القدر

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥

وحى يوحى

ـ 1 ـ

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :
أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان .
وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان .
وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان .
وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان .
وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان .

خرج محمد من غار حراء ، بدأ يخطو بين الصخور فى حذر ، كانت الشمس فى بدء إشراقها ، حانية بدفئها ، فالغار رطب بطبيعته .

راحت الأصوات تتناثر من حوله محيية فى مودة :

ـ السلام عليك يا رسول الله .

هو كثيرا ما سمع هذه التحية أثناء سيره بالخلاء ، هى أصوات تقلقه أكثر مما تسعده ، لأنه يخاف خداع إبليس ، ويكره أن يكون له قرين ، لكن النور الذى يفد ليضفى جوا من الطمأنينة والراحة على نفسه وهو منفرد فى الغار ، محال أن يكون من فعل الشياطين ، فالشيطان لا يفد على الإنسان إلا بالظلمة والشقاء .

ولما تحدث بمخاوفه إلى زوجته خديجة ، طمأنته فالشياطين لا سلطان لها إلا على الفاسدين ، وهو خيار من خيار .

رأى أثناء سيره صبيا نحيلا ، على مبعدة منه ، يهش غنيماته بعصا فى يده ، ذكره بصباه أيام أن كان يرعى الغنم لعمه أبى طالب ولأثرياء قريش لقاء أجر قليل.

ـ كيف حال صاحبى ؟ .

التفت خلفه ، فوجد عبد الكعبة هو من خاطبه ، كان يتقدم قافلة قد عادت بتجارتها من اليمن ، رد تحيته بأحسن منها ، وتقدم أبو بكر ، وتصافحا فى شوق ، ثم سارا جنبا إلى جنب إلى الكعبة فطافا بها ، واتجه عبد الكعبة إلى أصنامهم ، بينما انصرف محمد إلى داره ، هام فى سيره ، فهو سيرى زوجته وبناته ، ويمكث بينهم أياما ليطمئن على أحوالهم ، ثم يتزود بما يقيم أوده ، ليعاود من جديد الصعود إلى جبل حراء .

.. منع إبليس من الصعود إلى السماوات العلا ، وقذف بالشهب ، صرخ إبليس ملتاثا وهو يهوى من السماء :

- وا سلطانيه .

فهذا يعنى زوال ملكه ، وانتهاء تسلطه على تلك الملايين من الإنس ، فإنه يفتنهم ويرهبهم بالإيحاء إليهم بأنه يعلم مالا يعلمون ، وأن الغيب الذى يقلقهم ويحيرهم هو له كتاب مفتوح ، وإبليس لا علم له إلا من خلال تسمعه لأخبار السماء التى تتحدث بها الملائكة ، فإذا منع عن الاستماع فمن أين له ما سيفتنهم به ؟.

: يا ويل أياميه ، ويا لضيعة سلطانيه .

.. خر إبليس يمرغ وجهه فى التراب أسفا ونكدا .

.. تخسفت به الأرض ..

.. هوى فى طين المستنقعات ..

تلاطم مع الأمواج ..

ثم غاص حتى القاع فى البحار والمحيطات ..

ليهرب من السؤال الذى يلح عليه ، ويكاد يزهق أنفاسه ، ويتمنى أن يطرده ، والا يناقشه حتى لا يواجه بالحقيقة ، ولكن السؤال ظل يلح ويصك فكره بعنف ، بعد كل ذاك الهروب الذى قاساه ليفلت من مواجهته :

- أيكون هو المنتظر ؟ .

: أيكون محمد ذاك الذى عصمه الله ،فلم أستطع أن أجد لى سبيلا عليه ، هو النبى المنتظر الذى أتى زمانه ؟ .

صرخ إبليس :

- والله لا أتركه ، ولأقعدن له كل مقعد ، ولأتربصن به كل متربص .

قال نفر مؤمن من الجن :

- وربنا إنك لن تستطيع له شرا ، فإن الله عاصمه ، وهو نبى ، كما عصمه وهو صبى .

قال إبليس وقد فاحت منه رائحة الكراهية عفنة خبيثة :

- إذن سوف أفسد عليه قومه ، ولأجعلن أقرب الناس إليه أكثرهم عداوة له ، ولأجعلن دعوته نارا تأكل قبائل قريش .

قال النفر من الجن المؤمن :

- ولكنه دعوة أبيه إبراهيم .

أذهل قول الجنى إبليس ، أعاد صورة إبراهيم ، وولده إسماعيل وهما يتمان بناء الكعبة إلى ذهنه ، سمع صوت الخليل وهو يرفع كفيه بالضراعة إلى السماء يدعو ربه قائلا : * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) سورة البقرة

قال إبليس مغتاظا :

- ولكنى محوت بشارته من التوراة والإنجيل فما تركت كلمة فيها ذكر لأحمد .

قال الجن المؤمن :

- ليس من كل الكتب ، ولا من كل العقول : محيت ، والله مبلغ رسالته ، فعال لما يريد .

.. تناثرت من إبليس ملايين الذرات بالحقد تطوف فى جنون ، ثم خمدت مرددة فى رهبة وخضوع وخشوع :

ـ حقا الله فعال لما يريد .
.. ثم عادت الذرات تلتئم لتعود إلى طبيعتها الخبيثة ، وقال اللعين :
ـ ولكنى عاهدت ربى أنى مفسد آدم و ذريته ، فلأقعدن لمحمد فى كل مجلس ، أصلصل فى الآذان حتى لا تسمع ، وأوسوس فى النفوس حتى لا تخشع ، ولأغوين به السفهاء حتى يمل ولى يخضع ، فإن كان محمد معصوما ، فإن من حوله ليسوا معصومين .
.. هرول زيد بن عمرو بن نفيل ، يبحث عن أول قافلة تعود من الشام إلى مكة ليعود معها ، وحين عرف بأن أمامه أياما كثيرات حتى يستطيع العودة ، قرر أن لا ينتظر ويعود وحده ، فلم يكن ليطيق أن ينتظر لحظة بعد أن قال له أحد الرهبان :
ـ إن الدين الذى تبحث عنه هو دين الإسلام ، وما أنت بواجده هنا بالشام ، ولكنك ستجده فى قريتك حيث سيبعث نبى منكم يدعو إلى دين إبراهيم ، فالحق به فإنه مبعوث الآن ، وهذا زمانه .
ودنت المسافات واقتربت ، وتأججت النفس باللهفة والشوق إلى رؤيا النبى المنتظر ، وهانت آلام كل مشقة على الجسد المنهك بالأسفار والسنين ، فها هى ذى نهاية البحث عن دين يرتاح له القلب ، تقترب خاتمتها ، رفع زيد يديه إلى السماء ، شاكرا لله أن أحياه حتى يشهد مشرق الإسلام .
لكن زيدا لم يصل إلى مكة ، ولم ير النبى الخاتم ، فلقد قتله أنصار إبليس ظلما ، ومات باحثا من الباحثين عن سبيل إلى الله .
.. هكذا شاء الله : أن يكون زيد علامة على الطريق ، قبل أن يدرك الطريق .

ـ 3 ـ

المكان : غار حراء .
الوقت : ليل .
اليوم : الاثنين .
الشهر : رمضان .
السنة : الثانية عشرة قبل الهجرة .
القمر كعادته مع أواخر الشهور العربية ، يظهر متألقا فى نهاية الليل ، ثم يغادر السماء مسرعا ويرحل ، لتغرق الصحراء فى ظلمة موحشة صامتة لا يقطع صمتها غير غثاء غنيمة ضالة ، أو عواء ذئب جائع ، ولا يعكر ظلامها إلا نجم عليل ، يقاوم كسف السحاب التى تكتم أنفاسه فيضعف ويضعف حتى يصير شاحبا مصفرا ، أو شهاب يمرق متوهجا لينطفئ للحظته .
فى سموق ، كان يرتفع جبل حراء ، شامخا فى تفوق مهيب على كل ما حوله من أكمة وجبال ، وعند النصف الأخير من قامته بدا غار حراء كفوهة تنادى من يراها أن يقدم على دخولها فتأخذه إلى عالم المجهول .
داخل الغار كان محمد منحنيا حتى لا ترتطم رأسه بجدره وبسقفه المنخفض ، يجمع بقايا ما صحبه معه من طعام وغطاء ، مستعدا للرحيل عائدا إلى داره ، بعد أن قارب الليل على الانتهاء .
.. لكن النور فاجأه ، نور كأنه شلالات فضة مذابة ، أو توهجات أشعة ماسات بيض سقطت عليها أشعة قوية فجعلتها تتوهج ، هو نور ليس كمثله نور الثريا ، أو نور القمر فى قمة الاكتمال ، أو نور الشمس لحظة الظهيرة ، فهو أعظم من هذا وذاك ، وأشد وأقوى ، فهو نور ليس كمثله نور .
بدا الأمر وكأنه حلم يقظة ، فلقد وجد محمد بدنه يذوب ويتلاشى ، فيصبح جزءا من ذرات ذاك النور ؛ متخلصا من قيد جسده ، متساميا ، محلقا ، يطوف فى انطلاق مبهر بلا موانع أو قيود مادية تعوق حركته .

كان منتشيا بما يحدث له ، مستريحا لحدوثه ، مشوقا للاستزادة والاكتشاف ، فلا أرض ولا سماء ، ولا حدود تحدد الأشياء وتجسدها ، مثل تلك التى تحيط بالأحياء ، وتحد من قدراتهم ؛ بعد أن أصبح الوجود نورا ليس كمثله شيء .

.. تبدى له ملك .

.. كان يحمل كتابا فى نمط من ديباج .

قال لمحمد والكتاب مفتوح :

- اقرأ .

وتستبد الحيرة بنفس محمد ، ويرد قائلا :

- ما أنا بقارئ ؟! .

ويضم الملك محمدا إليه ضما شديدا ، يزداد مع مرور اللحظات شدة فوق شدة، حتى لتكاد النفس تتبدد ، ويكاد الوجود أن ينتهى .

.. هنا يخفف الملك من غطه ، ثم يترك النفس حرة ، فتنساب الراحة بالخدر تهز المشاعر ؛ لكن الأمر لا يطول فما هى إلا لحظات ويعود الملك إلى قوله لمحمد :

- اقرأ .

.. وتمتلئ النفس بالخوف ، خشية العودة إلى الغط وهوله ، ويتساءل محمد فى رجاء :

- ما أنا بقارئ ؟! .

ويعاود الملك غط النفس القلقة الباحثة ، ويشتد عليها ، ثم يطلقها بعد أن أذاقها المزيد من الرهق ؛ لكن مشاعر الخدر والراحة ، لا تعاود النفس ، فلقد حلت مكانها مشاعر القلق والخشية من معاودة الغط ؛ وسرعان ما تحقق ما توقعت ، فلقد عاود الملك القول للمرة الثالثة :

- اقرأ .

ويكاد صوت محمد أن يختنق من الحزن والخزى ، وهو يعلن الحقيقة للملك :

- ما أنا بقارئ ؛ فما قرأت كتابا قط ، وما أحسنه ، وما أقرأ ، وما أكتب !! .

وفى استسلام كامل ينتظر محمد أن يعاود الملك غطه ، لكن الملك لا يضمه ، ولا يشتد عليه ، ولكنه قرأ فى خشوع أوبت معه ذرات النور ، فى ترديد رائع شمل الوجود جميعه :

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) سورة العلق

.. وكأنه ما كان قولا قيل ، فالكلمات قد انسابت ونقشت نقشا على جدر قلب محمد ، بل سرت فى دمه ، وامتزجت بروحه فى تآلف كامل ، حتى إن محمدا يستطيع أن يقرأها ، بل ها هو ذا يتلو ما سمع من الملك ، ودموعه تنساب فى خشوع ورهبة : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)

وما إن انتهى من تلاوته حتى أجهش بالبكاء ، وراح جسده ينتفض ، وبقى على هذا الحال زمنا لا يستطيع أن يدرك مدته طالت أم قصرت ؛ ولما هدأ رفع يده فوجد له يدا ، ورفع بصره فأبصر صخور غار حراء تحيط به ، ووجد واقعه الذى كان عليه من قبل محيطا به ؛ فلا نور هناك ، ولا ملك .

تملك نفسه حزن شديد ، فلقد ذهب عنه ذاك العالم النورانى ، وكأنه ما حدث ، وكأنه ما سمع ، وما تعلم ؛ وكأن ما حدث وهما من وهم ! .

.. ولكن من المحال أن يكون ذلك كذلك ، فها هى ذى الكلمات لا تزال نابضة فى قلبه ، ماثلة فى أذنيه ، ثابتة فى عقله .

.. فسبحان القادر الذى علم الأمى أن يقرأ .

.. سبحان الله الذى علم الإنسان ما لم يعلم .

.. سبحان من قال فى سورة العنكبوت :

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

- 4 -

نهض مرهقا تعبا ،غادر الغار ، اتخذ طريقه نازلا الجبل ، وشمس النهار ترسم على الصخور ظلالا متأرجحة لخطوط مبهمة .

لم يستطع أن يتجه إلى الكعبة ليطوف بها ، كما اعتاد بعد كل انتهاء من تحنث ، بل اتجه إلى داره ، وهو يدعو ربه أن يتمكن من الوصول إليها قبل أن يسقط إعياء ورهقا .

استقبلته خديجة وقلبها منفطر عليه ، فلقد ذهبت بها الهواجس كل مذهب ، بعد أن تأخر عليها ، وهو الذى لم يخلفها وعدا ولا موعدا ، وزاد من قلقها أن رسلها الذين بعثتهم يتقصون عن سبب تأخره ، عادوا إليها ليبلغوها أنهم لم يعثروا عليه فى مكة أو فى شعابها .

كان يقف أمامها ذاهلا ، يعيش بروحه بعيدا عن الموقف الذى تعيشه هى ، حقيقة أنه ماثل أمامها بجسده الذى راح يرتعد وينتفض بالحمى ، ويتفصد منه العرق ، من روع ما رأى ؛ لكن النفس مازالت واقعة فى إسار الموقف الذى عاشت فيه ، وتوحدت خلاله مع دفقات النور ، ونورانية الكلمات التى ألقاها عليه الملك ، وملكت عليه كل كيانه .

أخذت خديجة تسأله فى قلق عن ما أصابه ، وعن السبب الذى أوصله إلى تلك الحال التى تراه عليها ، وهو لا يجيبها بشىء ، ثم وفى صعوبة بالغة تمتم فى رجاء :

- دثرونى .. دثرونى .

أسرعت به إلى حيث اعتاد أن ينام ، فأنامته ، ودثرته بالأغطية ، ثم انحنت لهفى عليه تكرر تساؤلها الملتاع عما به راجية باكية .

.. وامتلأ فؤاده عطفا عليها ، فراح يجاهد رهقه ، وبعد جهد جهيد ، قص عليها ما حدث وما كان فى كلمات متقطعة مرتعشة ، والدمع ينساب مدرارا ، ثم أفاض بخوفه من أن يكون ما حدث من فعل إبليس ، الذى سيطر على أهله واستعبدهم بالسحر وبالشعر ، ثم أضاف قائلا :

- لقد خشيت على نفسى ؟ .

لكن خديجة نفت مظنته ، وأكدت له أن ما حدث محال أن يكون من فعل الشيطان ، فما رآه نور ، وما سمعه تمجيد للخالق العظيم ، وأمر بالعلم ، وإبليس لا يريد بالبشر خيرا ، ولا يذكرهم إلا بالدنس والفساد ، ولا يبتغى لعقولهم إلا أن تتسربل فى ظلمات الجهل ، وظلمة الدنايا ، ثم أردفت مؤكدة :

- كلا.. ورب الكعبة إن الله لن يخزيك أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

اطمأن إلى كلماتها ، هدأت مخاوفه قليلا ، فاستطاع النوم أن يأخذه إلى عالم الراحة .

تأملته خديجة طويلا ، ونفسها تكاد تتفجر خشية عليه ، رغم يقينها مما قالته له ؛ ولكن لم لا يساورها الشك : فهى زوجته ، وقد تكون منحازة إليه ، وهى تحبه كل الحب ، بل هى مفتونة به ، مقدرة له تلك العشرة الطيبة التى عاشرها .

.. واشتد ت بها الهواجس ، فأسرعت ترتدى ملابسها ، وتصحب أحد غلمانها ، وتسعى إلى دار ابن عمها ورقة بن نوفل ، وبصيص من أمل يحول بينها و بين أن تنهار فرقا على الحبيب ، بعد أن تسللت إلى نفسها مخاوفه التى أفصح بها إليها ، فزلزلت يقينها ، وأوشكت أن تنزل بها الرعب .

استأذن لها الغلام ، واستقبلها الشيخ الفانى بالترحاب ، وهو يقول مهللا :

- والله يا ابنة العم ما جاء بك الساعة إلى إلا أمر جلل .

حدثته خديجة بما رأت عليه محمدا ، وبكل ما سمعت منه .

استمع إليها ورقة بكل جوارحه ، وكل كلمة خطها من إنجيل وتوراة تحدثت عن أحمد المنتظر تتوارد على ذهنه ، حقيقة أن بصره الآن قد كل وبات أعمى ، لكن بصيرته أصبحت تضىء له الطريق بالحقيقة ،

هتف مهللا ، وقد أدرك أنه قد تحقق المبعث للنبى الخاتم :

ـ قدوس .. قدوس ، والذى نفسى بيده ، إن ما رأى محمد هو الناموس الأكبر الذى كان يـأتى مـوسى ، وإنه لنبى هذه الأمة .

ـ 5 ـ

خرجت خديجة من دار ورقة بن نوفل ، وقد هدأت نفسها ، واطمأن بالها إلى كون سعيها مع محمد ، إنما كان سعيا مع نبى الله الذى سمعت ابن عمها يتحدث عنه كثيرا ، منذ اعتنق دين النصرانية ، وكتب الإنجيل والتوراة بيده ، وكان يؤكد أن هناك نبيا قد أظلهم زمانه اسمه أحمد ، وأن عيسى عليه السلام قد بشر به ، وأعلن أنه التام للرسل ، وأنه الخـاتم .

واستعادت ذاكرتها ما قاله لها غلامها ميسرة منـذ سـنوات وسـنوات ، عنـدما أرسلتـه مـع محمـد فى تجـارتهما الأولى إلى الشام ، وكيف أن الراهـب الذى اعتاد أن يذهب إليه ميسرة قـد لاحـظ أن الغـمام يظلل محمدا ، ليمنع عنه لهيب الشمس مـن دون كـل رجـال القافلـة ، لـذلك راح يسـأل ميسرة عـن صاحبه ..

: كيف يتصرف ؟ .. ومن أى قبائل قريش هو ؟..

: وما اسمه ؟.. وما خلقه ؟ .

عشرات من الأسئلة سألهـا الراهب لميسرة ، ثم رجــاه أن يصحب محمـدا إلى صـومعته ، فلـما ذهـب معه إلى الراهب وجدوه قد أعد لهم طعاما ، وهو ما لم يفعله من قبل لميسرة طيلـة زياراتـه السـابقة ، فلما فرغا من الطعام أخذ يسأل محمدا فى شتى الأمور ، وهو لا يكف عن البحث بعينيه الكليلتين عـن علامات معينة ، فيطيل النظر إلى يديه تارة، وتـارة إلى عنقـه ومـا انكشـف مـن ظهـره، وحـين أرادا أن ينصرفا استبقى ميسرة، وقال له :

ـ إن صاحبك هو النبى المنتظر ، فأكتم الأمر عنه ، ولا تكلم فيه أحدا ، إلى أن يظهره الله .

.. وإذا لم تصدق نبوءة الكاهن ، ولم يكن ورقة صادقا فى كلامه ،أليس خلق محمد النبيـل ، واختلافـه الشديد عن أقرانه، وبعده عن الخطايا وأكل السحت ، وكراهيته للكهان والرهبان مـن الـذين يعملـون بالسحر ، فأصبحوا بسحرهم أولياء لقريش، وهجره لمجالس الشعر والفجـور وعبـادة الأصـنام ، ووصـله لرحمه ، وحدبه على أهله ، وإكرامه للضيف ، وإعانته للضعيف ، وكـل ذاك التواضـع الـذى يلازمـه بـلا افتعال حتى لتـراه بين خدمها وعبيدها فلا تكاد تدرك من السيد ومـن المسـود .. ألـيس هـــذا جميعـه كفيلا بأن يجعله هو النبى المنتظـر ؟! .

وحين دخلت دارها ، لم تستطـع أن تمنع تنهيدة خرجت مع تمتمتها لنفسها :

ـ حقا يا محمد إن كل ما فيك محمود ، وأنه لأنت أحمد .

تسللت إلى مخدعه ، وجدتـه مستغرقا فى النـوم ، وقد زايلته الرجفـة التى كانـت تهـز جسـده هـــزا ، بينما تألق جبينه بحبات العرق ، مـدت يدها فى حنان ، ومسحتها
بطرف ثوبها ، وهى تهمس لنفسهـا :

ـ ورب الكعبة إنى لأرجو يا محمد أن تكون أنت نبى هذه الأمة ، لتكون رحمـة بالنـاس ، كـما كنـت رحمة لى .

ـ 6 ـ

استيقـظ محمـد من نومه مرهقـا غاية الإرهاق ، وقـد بـدأت الشـمس تأخـذ طريقهـا نحـو المغيـب ، وذكريات تلك اللحظات النورانية التى عاشها لم تغادره بعد ، جلس فى فراشه متأهبـا للنهـوض ، أقبلـت عليه خديجة تبشره بما قاله لها ورقة بن نوفل ، وتشهده بأنه نبى الله ، فلم تجد منه اهتماما بما قالـت ، أو التفـاتا إليه ، فهو لم يزل فى نورانية اللحظات الماضيات

، غير راغب فى الدنيا وما عليها ، والشك عنده أقوى من اليقين بالنسبة لما حدث فى الغار ، وهو محق فى شكه ، فكل ما يحيط بالحياة حوله من سحر وشعوذة ، جعل الحق يختلط بالباطل ، والحقيقة تتوه أمام الوهم ، حتى أصبح الشرك جزءا من عبادة القرشيين .
تحامل على نفسه لينهض ، قالت له خديجة وهو يأخذ طريقه خارجا :
ـ ألا تأكل ؟! .
قال وهو ينصرف :
ـ ما بى حاجة إلى طعام ..
لم تعجب لقوله، فمحمد قليل الميل إلى الطعام، دائم الزهد فيه ، هو ليس كغيره من أصحاب البطون المدلا ، بل هو كثير الصيام : فلم لا يكون قد بدأ يومه صائما ؟ .
اتجه إلى الكعبة ليطوف بها، كان مشتت الفكر، مشغولا بما أحيط به من أحداث ، عازفا عن كل شىء، غير آبه بما يحيط به من بشر ، إلى أن وجد يدا تحط على كتفه فانتبه ملتفتا ، فواجه ورقة بن نوفل يتحسسه سائلا :
ـ ألست محمدا ؟ .
قال عازفا عن الحديث :
ـ نعم إننى هو .
قال ورقة فى لهفة هامسا :
ـ ألا تحدثنى يا ابن أخى بما جاءك ؟ .
تفجرت الحيرة كلاما متصلا : عما جرى ، وعما سمع ؛ وأفاض بمخاوفه التى تؤرقه ، واستمع إليه ورقة بكل جوارحه ، وهو يسترجع ما قرأ فى سفر أشعياء النبى : " أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة " .
وها هو ذا قد جاء محمدا من يقول له : " اقرأ " .
.. لم يملك ورقة أمام تدفق عواطفه بالفرحة والبشر ، إلا أن ينحنى فيقبل يافوخ محمد وهو يقول :
ـ والذى نفس ورقةبيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى من قبل : ولتكذبنك ولتؤذينك ولتقاتلنك ولتخرجنك ، ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصرا عظيما ، فأبشر يا ابن أخى فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم .
تساءل محمد جزعا :
ـ أو مخرجى هم ؟! .
قال ورقة مؤكدا :
ـ نعم فلم يأت أحد بمثل ما جاءك إلا عودى .
واصل محمد طوافه حتى أتمه ، ثم خرج إلى الخلاء وهو مهموم ؛ كانت ساقاه تقودانه إلى الغار ، مرهق النفس والبدن ، رغم ما قاله له ورقة ، فلعله لم يتخلص من الشك الذى يؤرقه ، ويطارده بأنه ممسوس ، وأن ما قيل وما سمع فى الغار ، هو من وسوسة شياطين الشعر ، وهذا ما كان يكره أن يصير إليه ، فما نهج نهج جده عبد المطلب ، ونهج عمه أبى طالب من صعود إلى الغار ، إلا فرارا من تلك الحياة النكراء التى يحياها قومه ، وبحثا عن طريق للعبادة الحقة بلا أصنام أو شرك ، عبادة لخالق السماوات والأرض ؛ أما أن ينتهى به سعيه إلى أن يصير : كاهنا أو شاعرا ، فإن الموت لأهون من ذلك .
.. كان قد تسلق الجبل ، مرتفعا عن الأرض ارتفاعا كبيرا، وقد تشبثت أصابع قدميه بمنزلق صخرة ، تتربص الهاوية بمن يتقدم فوقها خطوة واحدة ، هنا ظهر الملك يناديه مطمئنا، مهونا عليه :
ـ يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل .
داخلت نفسه طمأنينة جعلت قدميه تنسحبان متراجعتين، وعاد أدراجه ينزل الجبل، ولكن الملك عاود نداءه :

ـ يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

قطع طريق الهبوط وكأنه يطير ، وحين استقر على أرض الوادى ، رفع بصره ينظر إلى من يخاطبه فوجد الملك يملا السماوات والأرض محيطا به ، فلم يحتمل هول الرؤية وخر مغشيا عليه ، راح الملك يضمه إلى صدره مخففا عنه ، وليذهب ما أصابه من روع .

ـ 8 ـ

حين أفاق أسرع عائدا إلى داره ترجف أعضاؤه ، ولما بصرت به خديجة مصفر اللون ، مضعضع البدن ، يكافح حتى يستطيع الوقوف فلا يسقط ، هلع فؤادها ، وأقبلت

عليه تغطه بشدة ، وكأنها تود لو تفتديه بنفسها ، وهى تسأله :

ـ ما بك يا ابن العم ؟ .

قال محمد وأسنانه تصطك فى عنف ، محاولا بكل ما تبقى لديه من جهد أن يسيطر على مخارج الكلمات :

ـ زملونى .. زملونى .

.. أسرعت خديجة تدثره بخمارها وبكل ما وقعت عليه يداها ، وأنامته فى فراشه ، وهو لا يكف عن الارتجاف ، وهى على التصاقها به، مهونة عليه ما يجد من شدة ، وهنا تبدى له الملك مخاطبا بكلام الله تعالى من سورة المدثر :

يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

.. وهدأ جسد محمد، واستكانت نفسه، وامتلأ امتثالا لما نزل عليه، فالأمر جد لا هـزل، فلا شك ولا ريبة، فهذا الذى ألقى عليه ليس من الشعر فى شىء، بل هى أوامر إلهية تدعوه إلى طريق العبادة الصحيحة ، وإلى هجر الأوثان لأنها من أعمال الشيطان ، وإلى الطهر والتطهر من أدران الشرك والجاهلية ، والبعد عن النجس فى الملبس والخلق ؛ وهذا ما كان ينشده ويسعى إليه منذ شب بين أهله ورأى ما هم عليه من شرك عافته نفسه، ورفضه عقله، ففيما يفعلون تقليل لشأن العقل إن لم يكن فيه إلغاء له : فهل هنالك عاقل يجعل إلهه من صنع يديه ؟! .

ثم ها هو ذا مخاطب من الله تعالى ، بالحال التى كان عليها من شك وخوف وهلع ، مطالب بأن ينضو عنه حال التدثر العقلى : الذى يملأه شكا فى الحقيقة الجديدة ، وتخوفا من مواجهة التجلى الأعظم لله الذى خلق الإنسان من علق ، وعلمه ما لم يكن يعلم : وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ (86) سورة القصص

فسبحان الله الرحمن الرحيم ، الذى شملت رحمته عبده محمدا فنزل عليه الكتاب، وما كان يدرى ما الكتاب، ولا الإيمان .

.. نضا عنه غطاءه ، استقام جالسا ، نهض وقد ملىء نشاطا وإقبالا على الحياة ، صادف خديجة فى طريقه، أخبرها بما أنزل عليه ، هللت خديجة لما سمعت ، وللحال الذى أصبح عليه محمد من إشراق ملأ الوجه نورا ، ومن فرحة بدت فى نبرات الصوت الواثق وقد زايلته الرعشة ،وذهب عنه التردد.

تطهر مغتسلا، وتبعته فتطهرت هى أيضا، وخرج إلى الكعبة، ليطوف شاكرا لصاحب البيت ما أنعم به عليه، بينما اتجهت خديجة إلى أركان بيتها تزيل ما بها من أوثان .

.. وأوحى إلى محمد أن يشهد أن : لا إله إلا الله .

واستقر اليقين ، وظهر الحق الذى كان ينشده هو والذين ملأ الشك قلوبهم فيما كان آباؤهم عليه :

ـ لا إله إلا الله .
: وهل يعقل حقا أن يحكم كل هذا الكون إلا بإله واحد ؟! .
: واحد ، أحد ، فرد ، صمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحـد .
ثم أقرأه جبريل سورة الفاتحة :
بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ (3) مَالِـكِ يَـوْمِ الـدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَـيْرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (7)
: يا لله ..
: ما كل هذه الرفعة التى تحملها كلمات رب العالمين ؟ .
: قدرة ورحمة ، إنها تبيان لعظمة الخالق ، ثـم إتاحـة للعابـد أن يعـوذ ويسـتعين بـه ، طالبـا الهـدى وسبيل الرشاد ، نائيا بنفسه عن طريق الضالين ، من المغضوب عليهم لشركهم ، وعدم إتباعهم لتعاليم الله .

عاد إلى خديجة مفعم النفس بالأمل فى أن رحمة الله قد أدركـت العبـاد ، رتـل عليهـا مـا تعلـم ، ثـم أشهدها أن : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فشهدت .

ـ 9 ـ

كان من عادته أن يستيقظ مبكرا ليبدأ يومه بالطواف حـول الكعبة ، رغم قيامه الليل ذاكرا شاكرا لله ما اختصه به من نعمة الإسلام ، ولقد أضاف إلى عادته جديدا ، هو قراءة القرآن فى ركن قصى ، بعيـدا عن الأصنام وعن آذان المتلصصين ، وحين ينتهى يخرج إلى الخلاء متعبدا متأملا فى قدرة الله .
وعند خروجه ذات صباح أشار إليه جبريل أن يتبعه ، فسـار معـه مـا شـاء اللـه ، ثـم نكـت جبريـل الأرض بقدمه فتفجرت منها عين توضأ من مائها ، ومحمـد يتبعـه فيفعـل مثـل الـذى يفعلـه ، وعلـمه جبريل الصلاة ، فصليا ركعتين مستقبلين الكعبـة ، وحـين انتهيـا عـاد محمـد إلى الكعبـة فاسـتلم الحجـر الأسود وطاف بالكعبة سبعة أشواط ، ثم ذهب إلى داره فعلم زوجه الوضـوء والصـلاة ، فلـما انتهيـا ، جاءه جبريل وقال له :
ـ أقرئ خديجة السلام من ربها .
التفت النبى إلى زوجته ، وقال لها :
ـ يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك .
قالت الصديقة رضى الله عنها :
ـ الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .
وحين حل الليل ..
صلى به جبريل مرة ثانية ، فشرعت الصلاة مرتين بالغداة والعشى .
ومع تبدد خيوط الظلام ، وقـف محمد يصلى مع أول من صدقت به ، فى ركن من الدار اختاراه ليكونا بعيدين عن الأعين ، ولكن على بن أبى طالب رآهما ، ولقد دفعه الفضول لأن يقف متأملا مـا يحـدث ، مستمعا لما يقال ، ثم تقدم يسأل دهشا :
ـ ما هذا يا محمد ؟! .
قال النبى ﷺ :
ـ إنه دين الله الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسـله ، فـأدعوك إلى اللـه وحـده لا شريـك لـه ، وإلى عبادته ، والكفر باللات والعزى .
قال على ، وقد أذهله ما سمع :

ـ هذا أمر لم أسمع به من قبل ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب .

.. ولأن النبى كان لا يريد لأمره أن يشيع فى مكة أو فى غيرها ، طلب من على أن يكتم الأمر ولا يذيعه ، فلا قسر ، فليست هنالك ضرورة تلزمه بأن ينضم إلى الدين الجديد .

كتم "على" الأمر ، فلقد كان يحب محمدا ، ولقد جعله حدبه عليه ، أقرب الناس إلى قلبه من بعد أبى طالب ، وكان محمد تام الثقة فى كتمان على للأمر ، فرغم صغر سنه فإنه يتميز عن أقرانه برجاحة العقل ، والرزانة .

ولكن عليا ، وإن كتم أمر دين محمد الجديد ، إلا أنه لم يستطع أن يبتعد بفكره ، ولا بوجدانه عما سمع ..

: الله الرحمن الرحيم .. هذا هو إله محمد ، إنه إله أولى بأن يحب ، وأن يعبد ، ثم إن محمدا لم يدعه إلى أمر يسىء ، منذ انتقل من بيت أبيه ليعيش معه ، فمحمد بحق مثلما قالت عنه قريش : الصادق .. الأمين .

حين قر قرار على ، لم يطق صبرا ، وخرج يبحث عن النبى ، ثم وقف بين يديه يرتعد وجدا وقال :

ـ ماذا عرضت على بالأمس يا محمد ؟ .

قال النبى ﷺ :

ـ تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد .

قال على :

ـ أشهد .

.. وأصبح الذين يصلون فى دار خديجة ثلاثة ،ولكن الرابع انضم إليهم سريعا ، فحين رأى ـ من اختار محمد له أبا ـ أباه وهو يصلى ، ويرتل كلاما يأخذ بالألباب ، اجتاح كلام الله عقل الفتى المقبل على الشباب وزلزله .

.. ويطلب زيد من النبى أن يزيده علما بدينه الجديد ، ويجلس بين يدى النبى يستمع ، فلم يقم من جلسته إلا وقد شهد بأن لا إله إلا الله ؛ ولا عجب فى أن يحدث هذا لصبى اعتقه محمد من العبودية ، وأنزله منه منزلة الابن من الأب .

وما كان زيد ابنا لعبد ، ولكنه ولد بالشام من أب حر ، ومن أم حرة ، وأختطفه تجار الرقيق ، وجاءوا به إلى مكة وباعوه ضمن من باعوا من العبيد لحكيم بن حزام ، وحين عاد حكيم من رحلة الشام ، زارته عمته خديجة مهنئة لعودة ، فخيرها فى أن تنتقى من تريد مما عنده من عبيد ، تقديرا لزيارتها ، فاختارت زيدا لأنه كان أصغرهم سنا ، وأحسنهم وجها ، وكان اختيارها لنية بيتتها .

فلما عادت إلى دارها وهبته لمحمد ، تسرية عنه بعد أن فقدا ولديهما : عبد الله ، والقاسم ، وحين عثر الأب الحقيقى على ابنه فى كنف النبى ، بعد سنين عديدة قضاها متنقلا من بلد إلى بلد ، لا ييأس ولا يقنط ، واستمع محمد لقصة الأب منصتا فى رقة من ذاق لوعة الفقد ، ورأفة بالأب ، خير محمد "زيدا " فى أن يختار أى من الأبوين شاء ، وقال له :

ـ يا زيد هذا أبوك حارثة بن شرحبيل ، إن شئت فأقم عندى ، وإن شئت فانطلق مع أبيك .

وجاء قرار زيد سريعا ، وحاسما ، وبلا تردد :

ـ بل أبقى معك يا محمد ، فلقد أعطيتنى من الحب والرحمة ما لم أجده عند أحد غيرك .

وصحب محمد زيدا إلى مجالس مكة ، وأشهدهم أن زيدا قد صار ابنا له .

.. وهكذا انتظم المسلم الرابع فى الصلاة .

كانوا يتكتمون أمرهم ، فيصلون مع الشروق فى الكعبة ، ثم يستخفى النبى مع "على " فى الجبل ليصليا العشاء معا ، فلقد كانت قريش لا تأنف صلاة الضحى ، ولا تعجب منها .

ولكن هل استطاع تكتمهم للأمر أن يمنع تفشى خبر دينهم بين الناس ؟ .

: كلا.. فمن المحال أن يتحقق مرادهم ، لأن مكة كغيرها من المجتمعات الصغيرة ، يحب أفرادها أن يتجسسوا على ما حولهم من أخبار ووقائع ، لتكون محور أحاديثهم ، وشاغلا يجدد فكرهم ، ويلهب خيالهم ، فمجال الحياة اليومية ضيق محدود ؛ كما أن طبيعة البناء العمرانى تتيح للجار أن يشب قليلا فيكشف ستر جاره ، وأن ينصت بأذنيه فيسمع كما يريد ، وأن يتجسس فيلمس ما يود أن يكشف ستره ، فسكنى مكة الخيام والدور المبنية من حجارة الجبال ، المسقوفة بسعف النخيل ، أما أبواب الدور فهى ستائر من صوف الجمال أو الأغنام .

.. ولقد ساعد على سرعة الذيوع ما أعلنه ورقة بن نوفل منذ سمع من النبى بأمر الناموس الذى جاءه ، من أن محمدا هو أحمد الحامد لله ، وأنه هو الرسول الخاتم ، ثم راح يصيح فى غدوه ورواحه ، متوعدا القرشيين بزوال دولتهم ، وبالعذاب إن هم لم يتبعوا محمدا .

.. كما كانت خديجة كلما سئلت عن أمر الأمين ، لم تأخذ حذرها ، فتعلن حقيقة ما جاءه من أمر السماء .

.. وبسبب هذا جميعه ، سرعان ما تسامعت مجالس قريش بأمر الدين الجديد ، وراح القرشيون يقللون من شأن النبى ، ويشيعون أنه ساحر أو مسحور تخاطبه شياطين الشعر ، وأن أمره سينتهى إلى التعقل وهجر ما يتوهم ، كما انتهى أمر من سبقوه وتحنفوا هاجرين اللات والعزى وما عبد الآباء .

لذلك كانت فرحة سادة قريش لا توصف حين سمعوا بمرض النبى ، وبانقطاع الملك عنه ، وقالوا شامتين :

- لقد قلاه ربه .

ولكن فرحتهم لم تدم ، فلقد عاد جبريل محمدا ﷺ يمسح عنه الألم النفسى الذى عاناه نتيجة تخوفه من زوال نعمة الهداية عنه ، ورتل عليه من سورة الضحى قول الحق سبحانه وتعالى :

وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

.. فها هو ذا الخالق ينصفه ، وينصره ، ويجتبيه ، وينبهه إلى أن أمور الدنيا يجب أن لا تأخذ من اهتمامه إلا النذر اليسير :

فالآخرة خير لك ولأمتك ، وأكثر دواما ، ثم يذكره بفضله الذى شمله به ولا زال ، منذ صار يتيما ، ولأن محمدا عارف بهذه النعم الربانية ، فاهم لها ، فهو يصل الليل بالنهار متعبدا قانتا شاكرا لله .

قالت له خديجة حين قرأ عليها سورة الضحى :

- والله .. إن ربك لن يتخلى عنك أبدا .. أليس هو سبحانه من أرسل إليك الوحى بقوله : ما ودعك ربك وما قلى ؟ .

.. واشتد الوحى ..

.. وتتابع نزول القرآن .

الفصل الخامس :

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

سورة غافر

المجـادلون

- 1 -

جاءه عبد الكعبة وآثار رحلة الشام التى عاد منها بادية على وجهه ، مغبرة لثيابه ، فهو لم يـذهب إلى داره ، بل حضر إلى دار صديقه ورفيق صباه ، بعد أن سمع ما سمع من الذين كانوا فى استقبال القافلة ، وما إن لقيه حتى سأله فى قلق :

- أحقا ما تقوله قريش ، من تركك لدين الأجداد ، ودعوتك لهجر عبادة الأوثان، وعبادة الله الواحد ؟ .

فقال محمد ﷺ فى هدوء العارفين :

- إى وربى ، وإنى لأدعوك لأن تهجر الرجز ، وتشهد بأن لا إله إلا الله .

قال عبد الكعبة دون تردد أو قلقلة :

- بأبى أنت وأمى ، فأهل الصدق أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك لرسول الله .

قال رسول الله ﷺ :

- ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له فيه كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن قحافة ، ما عكم عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه .

جلس عبد الكعبة بين يدى النبى ﷺ فأسمعه ما كان من أمر الوحى ، ثم أسمعه ما أنـزل عليـه مـن كلام الله ، وهو منصت كل الإنصات ، مصغ غاية الإصغاء ؛ ولما أنتهى النبى ﷺ من حديثه ، أخبره عبـد الكعبة بالرؤيا التى رأى وهو بالشام ، وشرحت قلبه للإسلام :

.. لقد رأى أن القمر نزل بدور مكة ، ثم دخلها دارا فدارا ، ثم استقر فى حجره ، وحين قص رؤياه عـلى أحد الكهان ممن يشتغلون بقراءة الطالع وتفسير الأحـلام ، قـال لـه إنـه سـيخرج مـن دور مكـة نبـى سيتبعه ، وسيكون على ملته .

ولما وصل إلى الديار ، سأل :

- هل من جديد ظهر ؟.

فقالوا له :

- إن صديقك محمدا قد صبأ .

قال له محمد :

- هل تريد أن تسمع خبر السماء فيما يقولون ؟ .

قال عبد الكعبة :

ـ زدنى .

قرأ نبى الله ﷺ من سورة التكوير :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِي الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26)إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)

.. أمن " عبد الكعبة " والدمع ينساب مدرارا ، على وجهه ولحيته فيغسل كل آثار الإرهاق ، وما علق بهما من وعثاء السفر :

ـ صدقت وصدق من أرسلك بالحق ، والله يا محمد إنك ما جئت للناس إلا بالخير ، وإن قريشا لفى ضلال عظيم ، وأحمد الله أن شاء لى أن أستقيم .

وتبدى جبريل للنبى ﷺ يقرئه السلام ، وأنبأه بأن اسم " عبد الكعبة " ، بعد أن دخل الإسلام هو : أبو بكر ، فلا عبودية إلا لله وحده .

وأبلغ النبى صديقه بالأمر ، فامتلأ الصديق بالبشر : فأى شرف هذا الذى أفيض عليه من السماء .

.. وخر أبو بكر ساجدا لله وأناب .

أثلج دخول عبد الكعبة فى دين الله صدر النبى ، فهو أول مصدق برسالته يفد عليه من خارج داره ، فلقد عانى كثيرا من القرشيين ، فهم لم يكتفوا بالرفض بل أخذوا يلاحقونه بسخافاتهم ، وحتى جاره عقبة بن أبى معيط ، وأقرب الناس إليه وعمه عبد العزى بن عبد المطلب وزوجه أم جميل ، لم يسلم من أذاهم : فعقبة يترصده بالصفير كلما سمعه يرتل القرآن ، ويضع فى طريقه الشوك والقاذورات ، وقد رفض أن يستمع إليه حين دعاه للإسلام ، ونغض رأسه ساخرا ؛ أما عمه فيلاحقه فى كل مكان يذهب إليه بالسخرية من كلامه ، والاستهزاء بدعوته ، والتشكيك فيها وفيه ، ليصرف عن الاستجابة له من يميل قلبه لحديثه ، خوفا من تحرش عبد العزى وبطشه ، بينما امرأته تفعل مثلما يفعل عقبة فترمى الأوساخ أمام باب داره .

وإن هذا التصرف ليكبر عند النبى ، ليس حزنا ، ولا غضبا مما يناله من إيذاء ، ولكن لغرابته لما عرف عن العرب من حسن رعاية الجار ، وتقديس لصلة القربى .

.. ويا له من تناقض ذاك الذى يحدث من الأعمام : عمه عبد العزى ، وعمه أبى طالب : ذاك يبغضه كل البغض ، وهذا يحنو عليه حنو الراعى على غنيماته ، ويحيطه بالحب : فأبو طالب ، وإن لم يدخل فى دين الإسلام كما دخل ابنه على ، إلا أنه لم يقاتل محمدا فيه ، ولم يرغم عليا على تركه ، بل إنه حين رأى على يصلى معه ، قال لابنه :

ـ اتبعه فإنه لا يبغى بك إلا خيرا .

: فنعم الكفيل ، ونعم القريب أنت يا أبا طالب ..

ـ 2 ـ

كان المنتظر مع دخول أبى بكر فى دين الله ، مصدقا بمحمد ، وبما نزل عليه ، وهو من أشهر تجار قريش ، بل هو لقريش وزير خزانتها ، يأتمنونه على أموالهم وذهبهم وتجارتهم ، ويحفظون فى داره كل غال ونفيس ؛ أن قريشا وسادتها سيتدبرون الأمر ، وقد يكون فى تدبرهم ما يجعلهم يعدلون عن تعنتهم وكبرهم ، والافتراء على محمد ﷺ ، بما يتقولون به فى مجالسهم ، فتارة يقولون

: إنه مجنون ، وتارة أخرى يقولون إنه شاعر .
.. لكن ما حدث كان مغايرا لكل توقع ، فلقد زادهم دخول أبى بكر فى دين الله كراهية للنبى ، بل لقد زادوا من إيذائهم لمحمد ، لأن أبو بكر سرعان ما عاد إلى النبى ، ومعه عثمان بن عفان ، ثم ومعه من هم غير عثمان من سادات قريش وكبرائها ممن شرح الله قلوبهم للإيمان ، وهو ما زاد من إحساس القرشيين بخطورة دعوة محمد ، واختراقها لصفوفهم ، فازدادوا تعنتا وتطاولا على النبى وتكذيبا لرسالته ، وقولهم بأنه لم يوح إليه ، إنما هو غوى .
ورد عليهم رب العالمين ادعاءهم ، فنزل جبريل عليه السلام بقول الله تعالى ، مقسما ، ومبينا ، ولائما ، للمدعين على نبيه بما هو ليس فيه ، فى سورة النجم :
وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12)
.. ولقد عاتبهم ربهم فى عدم تصديقهم لمحمد ، وهم من أسموه : الصادق الأمين، وهو ليس بغريب عنهم ، فقد لبث فيهم عمرا ، فما جربوا عليه كذبا ولا كهانة ، ولا سمعوا منه شعرا ، ولا رأوا منه تصرفا يدل على اختلال فى العقل ، فلماذا يعجبون أن محمدا يوحى إليه من عند الله القادر ، فقال فى سورة يونس :
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2)
.. ثم إنهم بعدم تصديقهم برسالته ، وادعائهم عليه بما هو ليس فيه : يجحدون بنعم الله عليهم ؛ ونزل جبريل على محمد يوضح له هذا جميعه ، ويحثه على أن يزجرهم ، ويفتح عيونهم على هجرهم لنعم الله التى أنعمها عليهم ، وآخرها أنه أكرمهم بأن جعل منهم رسوله الخاتم ، ونزل القرآن بلغتهم يخاطبهم فى إعجاز لغوى ، وهم أهل الفصاحة ، ويثبت لهم مدى قدرة الله تعالى ، أمام ما يعتقدون بقدرتهم عليه ، ويتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله :
وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (23) سورة البقرة
.. ثم يؤكد العليم القدير أنهم لن يستطيعوا ، فى سورة الإسراء :
قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (88)
.. قبل المشركون التحدى ، وراح شعراؤهم وفصحاؤهم ، يحاولون محاكاة القرآن ؛ وباءت محاولاتهم بالسخرية ، والامتعاض ، حتى من الذين شجعوهم على المحاولة ، وتحقق قول رب العالمين .
.. ولكن ، هل للأعمى أن يرى كساح رجليه ؟! .
.. وهل للأصم أن يسمع نكران صوته ؟! .
.. فها هم أولاء أمام فشلهم المذرى والذى فضحه القرآن ، قد لجوا فى عتو ونفور يجادلون بالباطل فقالوا :
ـ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثين، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ؟!
قال جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم اسألهم :
ـ لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ .
قالوا :
ـ لله .

قال النبى :

ـ أفلا تذكرون ؟ .

ثم استطرد :

ـ من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ .

قالـوا :

ـ الله .

قـال :

ـ أفلا تتقون ؟! .

.. ثم سألهم :

ـ من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ .

قالـوا :

ـ الله .

وقرأ عليهم رسول الله ﷺ من سورة المؤمنون : .. قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92)

.. بهت المشركون ، ولم يجدوا أمـامهم مـن سـبيل إلا فى السـعى إلى أبى طالـب شـاكين عيـب محمـد لآلهتهم ، وآلهة آبائه وآبائهم ، وتسفيهه لأحلامهم ، وتفريقه لأسرهم وطـالبوه بـأن يكفـه عـنهم ، فـلا يدعو منهم أحدا للدخول فى دينه ، فيكفـون أذاهم عنه ؛ وإن لم تكن عند أبى طالـب القـدرة عـلى رده وإيقافه ، فليسلمه لهم وهم سيرغمونه على الكف عما هو عليه .

.. رد أبو طالب عليهم بالحسنى ، وردهم ردا جميلا ، وخرجوا من عنده وهم واثقون من أن أبا طالب لن يتخلى عن نصـرة ابن أخيه إذا ما جد الجد ، وعزموا على أن لا يعودوا للإلحـاح واللجاجـة حتـى لا يغضبوا أبو طالب فينقلـب علـيهم ، وينفـرط عقـدهم ، أو يسـتثيروه فيـدخل فى ديـن ابـن أخيـه كـبرا ومعاندة لهم !.

وحين حادثه عمه فيما احتج به قومه ، قال له النبى ﷺ :

ـ يا عم هل أسمعك ما قاله ربى فيهم ؟ ..

وقرأ عليه من سورة الحج :

ـ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7) وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (10) وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ

هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14)

ـ 3 ـ

.. وازداد عدد الداخلين فى دين الله ، من أهل الذمة والعبيد ، كـ بلال ، وعمار بن ياسر وغيرهم ، وكيف لا يفرون إلى رحمة الله التى جاء بها نبيه ﷺ ، لينصفهم من جبروت المجتمع الذى أورثهم وورثهم وأبناءهم للأقوياء ، فأهدروا آدميتهم ، وذلك من خلال إعلان المساواة بينهم وبين السادة ، ورفض العبودية ، فى قول رب العالمين : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(10) سورة الحجرات .

.. ولكن دخول المستضعفين ممن ليست لهم جذور بين بطون مكة تدفع عنهم الأذى ، وتعطيهم الحماية والأمان ، وتمنعهم من قريش ؛ أعطى فرصة لكبراء قريش ، كى ينفثوا فيهم عن كراهيتهم الشديدة لمن دخل الإسلام من السادة ؛ فراحوا يذيقونهم العذاب ، ويبطشون بهم ، والنبى يألم لهم أكثر مما يألمون ، ويطالبهم بالصبر كلما شكوا له حالهم .

ثم راح الجمع من قريش يطاردون المسلمين فى بالطعن والسب فى دينهم ، ويشوشون عليهم ، بالتصفيق والصفير فى صلاتهم بالكعبة .

ولم يقف عدوان المشركين عند هذا الحد ، فلقد ازدادوا شراسة ، ورغبة فى إحداث المزيد من الأذى للمسلمين ، فتحولوا إلى أهلهم ؛ فسلبوا ممن دخل الإسلام الأموال ، وإنتهبوا التجارة ، وفرقوا بين الزوج وزوجه ، وبين الأب وابنه ، بل لقد طردت الأباء أبناءهم من الذين آمنوا من رعايتهم ، وهم بعد فى سن الصبا والحاجة للعون .

واشتدوا فى إيذائهم للنبى ، فها هو ذا عقبة بن معيط يحيط بثوبه عنق النبى ﷺ ، ويحاول أن يخنقه بينما كان يصلى فى الحجر بالكعبة ، ويراه أبو بكر رضي الله عنه فيهرول إليه ، يدفعه عن النبى بكل ما فيه من عزم وقوة ، قائلا فى استنكار :

ـ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم .

ثم ها هو ذا يكرر الإيذاء ، ويقذف بأمعاء جمل مذبوح على ظهر النبى وهو ساجد لله ، فلا يرفع النبى رأسه من الصلاة ، وتأتى ابنته فاطمة ترفع الوسخ عن ظهره ، وهى تبكى وتدعو ربها أن يقتص من الفاعل ، وما كان عقبة ليجرؤ على ذلك ، لو لم يجد من عم النبى عبد العزى تشجيعا ومؤازرة .

.. وهاكم النضر بن الحارث ، بعد عودته من بلاد فارس وقد سمع منهم أساطيرهم التى يسمرون بها ، يدعى أن ما يقول محمد ﷺ ما هو إلا أساطير الأولين ، ويذهب إلى مجلس النبى ﷺ ، ويروح يقاطعه حتى يسكته ، ثم يقص ما سمع على من يتحدث إليهم نبى الله ، ثم يسألهم بعد أن ينتهى من هرائه ، قائلا :

ـ بالله آينا أحسن قصصا أنا أم محمد ؟ .

.. وها هو ذا أبو جهل عمرو بن هشام يستنفر المشركين ، ويطلب منهم الحماية لأنه قد قر قراره على قتل محمد ﷺ ، فيقرونه على ما أنتوى ، ويباركون قوله ، ويعطونه العهد بالأمان ، ويجترئ وينتظر بصخرة كبيرة ، رفعها بين يديه عاليا ليشج بها رأس النبى وهو ساجد فيقتله ؛ وحين يقبل النبى ويستغرق فى صلاته ، يتقدم أبو جهل بالحجر ليهوى به على رأس النبى ، وهو بين يدى الله ، ولكن الحجر يلتصق بيديه ، فلا يستطيع فعل شئ ، بعد أن أصبح الحجر قيدا له ، وتحولت أداة القتل من المقتول إلى القاتل تروعه .

أسرع أبو جهل مبتعدا عن النبى ﷺ ، وهو يرتعد من شدة الهول الذى أنزله الله به ، وأخذ يصرخ فى رفاقه وقد ألم به كرب عظيم ، ليخلصوه مما هو فيه من بلاء ، وهم مجتمعون حوله لا يستطيعون له نفعا ، وأصبحت كل أمانى أبى جهل أن ينجو بنفسه مما هو فيه ، وغادرت فكرة الاعتداء على النبى قلبه ؛ هنا فقط سقط الحجر من بين يديه ، وسقط أبو جهل فى التراب ، ومشاعر الهزيمة والعجز والهوان تهد كيانه هدا .

.. ويرى محمد ما يحاك له .

.. وهو صابر .

.. فلم يجأر بالنداء ليستفزز أهله من بنى عبد المطلب ، وما كانوا ليخذلوه فالأمر هنا نصرة لمن هو منهم ، وليست نصرة لدين الله ، وما كان هو يحب ذلك ، بل إنه ليخفى عنهم كل ذلك التطاول ، كما أنه لم يلعن المسيئين عند ربه ، ولم يدع عليهم كما فعل غيره ممن سبقوه ، من رسل وأنبياء ، مع العصاة من أقوامهم .

.. بل هو يعفو ويمارس الصبر ، فهكذا علمه ربه : وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ(43) سورة الشورى

.. هو أيضا يريد أن يكون من أولى العزم .

- 4 -

.. رغم أفعال مشركى قريش ، ونفورهم الشديد من إتباع دين محمد ، فإنهم كانوا يجتمعون خارج بيت النبى إذا ما أسدل الليل أستاره ، ليستمعوا إلى قراءة النبى للقرآن ، بل هم لا يخفون افتتانهم ببلاغة القرآن ، ولكنهم لا يجرءون على أن يهمسوا بما يحدثه فى نفوسهم من أثر ، يصل إلى الحد الذى يجعلهم ينصتون ، فما يدرون بقدوم القادم عليهم ، فهم فى رهبة عظيمة مما يتناهى إلى أسماعهم من ترتيل ، ثم حين ينتهى النبى من ترتيله لكلام الله ، ينتبهون لما فعلوا ، ويروحون يتلاومون على إنصاتهم ، ويتعاهدون على عدم العودة إلى التنصت والاستماع ، ولكنهم لا يصدقون فيما تعاهدوا عليه ، ويعودون مرارا إلى التنصت تحت دعاوى كثيرة؛ وإن ظلت قلوبهم فى حسرة يتقولون بأمانيهم: لو أن هذا القرآن أنزل على رجل عظيم من مكة أو من القطيف، بدلا من إنزاله على محمد الذى شب يتيما فقيرا لا يملك المال ولا السلطان ، إذن لصدقناه واتبعناه ؟! .

.. أو يتمنون لو أن هذا القرآن نزل به ملك ، أو لو أن الله أعطى محمدا ﷺ من المعجزات الحسية كتلك التى يتحدث القسس عن قيام نبى الله عيسى بها ، من إنزال مائدة من السماء ، أو شفاء الأبرص والأعمى بإذن الله .

.. ولما تحدثوا إلى النبى بهذا قال لهم :

ـألا يكفيكم شرفا أن الله قد خصكم بخيرت كثيرة ، فجعل رسوله إلى الناس كافة من بينكم ، وأن الله تعالى هو من اختصنى مبلغا لرسالته :

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (16) سورة يونس

.. كما أن الله قد أورثكم الكعبة تحظى باحترام العرب ، لا يكفون على مدار الأيام عن زيارتها والحج إليها ، مما أكسبكم بينهم موقع الاحترام والمهابة ، وجعل لكم البيت آمنا يرفل فى عناية الله وحفظه ، فى قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68) سورة العنكبوت

.. كما جعل لكم فى تجارتكم بين اليمن والشام رزقا رغدا :

لإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) سورة قريش

.. وأمام هذا الفضل جميعه، آلم يأن لكم أن تعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمكم من جوع وأمنكم من خوف؟.

.. ثم مالكم تعجبون وتدهشون، وترفض عقولكم تصديق ما يحدث حولكم، وما اختص به الله عبده محمد ﷺ، وتتهمونه بما ليس فيه :

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2) سورة يونس

فما بالكم يا قومى لا تبصرون ، ولا تعقلون ؟! .

..وبعد أن قال لهم نبى الله ﷺ ما ألهمه به ربه من قول ؛ قام المجادلين من المشركين من مجلسه وهم أكثر عجبا ، فلم يفقهوا شيئا مما قيل لهم ، ودهش نبى الله ﷺ غاية الدهشة من حالهم ، ونزل جبريل عليه السلام لجلاء الحقيقة ، فقال له الله علام الغيوب مبينا :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) سورة محمد

.. ورغم هذا ، لم يتوقف دخول من يختص الله بالهداية من الناس ، فى دين الله ، حتى امتلأت بهم دار خديجة على رحابتها، فازداد تجسس جيران نبى الله ﷺ عليه ، وكثر تطاولهم على ضيوفه بالسفيه من القول والفعل، ولكن ما السبيل غير الصبر وانتظار نصر الله ؟ .

- 5 -

.. بعد مرور ما يزيد على العام من بدء دخول العشرات فى دين الله ، مرت جماعة من المشركين بموضع صلاة المسلمين فى الشعب ، حيث كانوا يستخفون عند صلاة الغسق ، فسبوا المصلين وسبوا دينهم ، وثارت ثائرة المسلمين غيرة على الله ورسوله ، وتشابك الجمعان ، وانتصر المسلمون ، وشج سعد بن أبى وقاص رأس واحد من المشركين ، وتصايحت قريش بأنها لن تترك مسلما يقرأ القرآن ، أو يصلى إلا وستنال منه .

أثار هذا الحادث قلق النبى ﷺ .. وبعد إعمال الفكر وجد أن عليه أن ينأى بهم عن هذه المضايقات ، والسبيل الوحيد هو البعد عن مجالس قريش ، والبحث عن مكان آخر غير دار خديجة رضى الله عنها ، وجاءه الخلاص سريعا حين عرض الأرقم بن أبى الأرقم داره لكى يقيم بها النبى وكافة المسلمين ، وكان عددهم قد قرب من الثلاثين أو يزيد، فاستجاب النبى للدعوة، فلقد كانت الدار كبيرة، كما كانت بعيدة عن مسامع قريش، فهى تكاد تكون وحدها التى بنيت عند جبل الصفا .

فى هذه الدار كان الملتقى الأول لكل الذين آمنوا مجتمعين ، يدارسهم النبى فيحمل إلى صحابته ما علمه ربه، ويتلو عليهم ما أوحى ويوحى إليه من القرآن، ويرتله ترتيلا ترتيلا، ليحفظوه ، ويعايشوه .

وكان جبريل دائم الحضور يدارس النبى ، ويفسر له ما استعصى عليه فهمه من كلام الله ، ويشير عليه بما يفصح به لأصحابه من درجات العلم الذى يعلمه له ربه ، فهناك من العلم أسرار مهولات لا تحتملها ألبابهم ، ولا تحتملها أزمانهم ، فما تعلم النبى هو على قدر النبى .

ولقد كانت مدرسة دار الأرقم بن أبى الأرقم نواة لمبعث أمة من الخلق تختلف عمن سبقها من أمم ، كان محمد ﷺ هو قدوتهم ، يتعلمون من أفعاله وأقواله ، وكان لب العقيدة ومدخلها : شهادة أن لا إله إلا الله ، قولا وعملا ، فالله واحد أحد فرد صمد ، لا يشاركه إله فى الملك وليس له امرأة ولا ولد ؛ وأن أمر الحياة وما زينها به خالقها : من مال وبنون ، ثم موت ، وبعث ، وحساب ، جميعه بيد الله .

.. وكان القرآن دستورهم بما حمله لهم من رحمة ، وما فتح عيونهم عليه من علم ، فجعل لحياتهم طعما ومعنى : فلقد علموا أن حياتهم ليست عبثا ، وأن بعد الحياة بعثا ونشورا ، وأن الأمر ليس كما كانوا يعتقدون :

إن هى إلا حياتنا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين؛ وأن الحياة ليست هى نهاية الرحلة بانتهائها ينقضى كل شىء، بل هى دار الاختبار ، ثم يردون إلى الله خالقهم ، قال الله تعالى فى سورة يونس :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4)

.. إذن عليهم أن يحسنوا سلوكهم ، وأن يتقنوا عملهم ، فلا سبيل للإنسان للنجاة إلا بعمله ، فمنه يكون الجزاء ، كما جاء فى سورة النجم :

أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42)

.. وأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، كما جاء فى سورة الحجرات :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

.. وأنه ليست هناك عبودية فى الإسلام ، فالناس أمام الله سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد ، وما أروع عدلك يا رب حين تقول فى سورة المائدة :

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأنفَ بِالأنفِ وَالأذُنَ بِالأذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45)

.. فالكل من منبع واحد ، ولأصل واحد ، هو آدم عليه السلام، كما جاء فى سورة النساء :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)

.. وأن فى هذه الحياة الدنيا ما هو حلال وما هو حرام ، فكما أحل الله لأدم أن يأكل من طيبات الجنة ، حرم عليه وحواء أن يقتربا من الشجرة التى عرفها لهما ، أو يستمع إلى وسوسة الشيطان فيضل ويشقى ؛ فالإنسان قد حرم عليه أن يشرك بالله أو يسرق أو يزنى أو يقتل أولاده خشية إملاق ، فرزقه ورزقهم على الله ، ولا يقتل نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق فمن قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فيحاسبه الله وكأنه قتل الناس جميعا ، ولا يأتى ببهتان يفتريه من بين يديه وأرجله ، أو يعصى فى معروف .

وأن حقيقة الدنيا زوال ، وأن الآخرة خير وأبقى ففيها الحياة الطيبة للمؤمنين : فلا نصب، ولا متاعب جسد، ولا مشقة .

وأن الدنيا مهما عاش الإنسان من أيامها وسنواتها ، فهى قصيرة أيما طالت بالنسبة للآخرة ، ففى الآخرة اليوم بألف سنة مما نعد فى دنيانا ، والمسلمون هم السابقون الذين وعدهم رب العالمين بجنات النعيم فى سورة الواقعة :

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنْ الأوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنْ الآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ(18) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(24) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (25) إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا(26)

.. وأن الإنسان ما هو والحياة ، إلا كزارع يستعد ليوم جنى الثمار ، فإن أحسن الزرع فجنيه جنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فيها من الخيرات والمتع مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والمتعة فيها متصلة بلا مشقة ولا معاناة ؛ أما إذا زرع ولم يحسن زرعا فهو إلى جهنم يصلى نارا وعذابا وخزيا ، وبئس المصير .

وأمام هذه المعرفة الجديدة : ألا تهون الدنيا عليهم ، ويقل شأنها ، ويهون أمرها ؟.
وقد عرفوا أن الشق الثانى من الشهادة ، وهو شهادة أن محمدا نبى الله ورسوله : يعنى الإقتداء والتشبه بخلق وأفعال رسول الله ﷺ .
كان النبى ﷺ أكثرهم حياء وتواضعا ، يجلس وسطهم فلا يستطيع من لا يعرفه أن يميزه من بينهم ، يفعل ما يفعلون ، وإذا قام ثم عاد ، يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكان يقول لهم : لا تميزونى بينكم .
.. ويؤكد تصرفه ، فى قوله ﷺ :
ـ أجلس جلسة العبد ، وآكل أكلة العبد ، وأحب أن أكون عبدا رسولا ، ولا أحب أن أكون ملكا رسولا .
.. كان نبى الله ﷺ ينزل إلى الأسواق سعيا إلى الارتزاق من عمل يده ، فيبيع ويبتاع ، حتى لقد عير الكفار المسلمين بأن الرسول يمشى فى الأسواق لا يميزه شئ ، ولا يتميز فى شئ ، وهو بشر مثلهم : يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، ولئن اتبعتم بشرا مثلكم فإنكم خاسرون !! .
وما كان كفار مكة ، وأهل الكبر والصلف يدرون أنهم بتعداد كل هذه الصفات عن النبى ﷺ ، إنما يزكونه عند أصحابه .
.. لقد تسلل حب نبى الله ﷺ إلى نفوس من معه جارفا ، فسيطر على كل ذرة من ذراتها ، وجعلهم يذوبون فيه ذوبانا كاملا ، ثم ارتقى الحب فأصبحوا يؤثرونه على أنفسهم ؛ وأصبح الله ورسوله أحب إلى المسلم الأول من الدنيا وما فيها ، ومن فيها : فتآلفت القلوب ، وانزاحت الدنايا ، وتوحد الكل فى قولة : لا إله إلا الله محمد رسول الله .
.. كان هذا التآلف يثير عجب المشركين واستنكارهم ، فلا مجلس محمد فى فخامة وترف مجالسهم ، ولا المسلمين يلهون ويستمتعون بسويعات اجتماعهم مثلما هم يفعلون ، حيث الخمر والطعام والغيد الحسان ؟ .
وكيف لكفار مكة أن يعرفوا ، وهم لم يرتفعوا عن حضيض الدنايا المادية ، إلى سمو الروحانيات ، ليذوقوا شهد الإيمان بالله ورسوله ؟! .
.. بل لقد وصل بهم حال الضياع أن قالوا :
ـ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم .
وذلك بدلا من أن يقولوا قول العقلاء :
ـ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأهدنا إلى سواء السبيل .
وجاءهم رد الرحمن الرحيم ، فى سورة الأنفال ، بأن وجود النبى والمستغفرين لذنبهم من المسلمين يمنع عنهم العذاب إلا لكرامة الحبيب محمد ﷺ عند ربه :
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)

ـ 6 ـ

وحين اشتد الأذى بصحابة النبى ﷺ ، كان جبريل عليه السلام يحمل إليه قصص الأنبياء ممن سبقوه ، وما لاقوه من الكفار والمشركين ، وما لاقاه المسلمون الأول من عنت وتعذيب فاق ما يتعرض له صحابته بكثير ، حتى إن المسلم من أولئك كان يشق إلى نصفين حتى يكفر بالله ، فما كان يستجيب ، مفضلا الشهادة والجنة التى وعد بها المتقون ، على الدنيا وزخرفها ، وهى أمور لم يعرف بها قومه ، كما جاء فى سور هود:
تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

.. وكانت تلك القصص عظة وعبرة ، وتسرية عن النبى ﷺ ، لأنه لم يكن يملك دفع الأذى عن أصحابه ، وتخفيفا من آلام نفسه الرحيمة التى كانت تتبدد شتاتا حزنا ورأفة بالمعذبين من ضعفاء قريش ، كلما رأى أو سمع عن عذابهم الذى وصل إلى حد جلدهم بالسياط ، وكيهم بالنار ، وطرحهم ببطحاء مكة وقت الظهيرة وهم عراة لكى تفتت الشمس القاسية عظامهم ، وتكوى جلودهم ، وتوهن عزيمتهم ، وكان أول من شرف بالشهادة فى الإسلام من ضحايا قريش : سمية ، زوجة ياسر ، وأم عمار وزيد :

وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)

.. ولقد ذهب إلى رسول الله ، وفد من المعذبين قائلين :

ـ يا رسول الله ألا تستنصر لنا ؟ .

قال رسول الله باثا فيهم روح الصبر ، ومبشرا بالأبقى :

ـ كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض ، فيجاء بمنشار ، فيوضع على رأسه فيشق ما دون لحمه وعظمه ، وما يصده ذلك عن دينه ؛ والله ليتمن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله تعالى ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون .

.. ثم استطرد فتلا قول الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214)

.. وأمام هذه المحنة ، أخذ أبو بكر يشترى من يستطيع شراءه من المعذبين ، رحمة بهم ، ثم يعتقهم لوجه الله أحرارا ، وحين احتج أبوه قائلا :

ـ يا بنى اشتر الأقوياء فيمنعوك من ظلم قريش ، بدلا من أن تشترى من لا حول لهم ولا قوة ، فلا يستطيعون أن يدفعوا عنك أذى ، وإنها لتجارة بائرة .

قال أبو بكر :

ـ بل هى تجارة مع الله ، ومن يتاجر مع الله فتجارته لا تبور .

ولما ازداد ظلم قريش ، وأصبح اضطهادهم للمسلمين لا يطاق، جاء جبريل إلى النبى ﷺ ، فبصره، وأرشده، واستجاب النبى وأبلغ أصحابه بما أوحى إليه، قائلا :

ـ لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ،وهى أرض صدق .

.. و كانت أول هجرة فى سبيل الله لصحابة رسول الله ﷺ ، ونفذها عشرة أو يزيد من المسلمين ، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله رضى الله عنها .

كان فراقهم شاقا على نفس النبى ، وإن كتم الأمر وأخفى حزنه وألمه عن الصحابة حتى لا يزداد ألمهم لألمه ، فتكفيهم مرارة فراق من كانوا لهم إخوانا .

.. ولقد أعقبت الفئة الأولى من المهاجرين فئة ثانية ، تسللت مغادرة من مكة فى تخف وحيطة ، حتى لا يشعر بهم المشركون ، فكانوا ينفلتون أثناء الليل فرادى أو مثنى وثلاث ، ثم يتجمعون عند نقطة اتفقوا عليها على شاطئ البحر ، فيستأجرون مركبا ، ويرحلون آمنين إلى أرض الحبشة ، وقلوبهم تنزف ألما لفراق الحبيب محمد ، ولفراق الأهل والأرض ؛ وإن كان الأمل لا ينقطع فى عودة منتصرة إلى أرض المولد ، وإن داخلتهم سعادة لا تخفى لأن هجرتهم طاعة لأمر الله تعالى ، وانتظار لأجره ، فلقد قال الله تعالى فى سورة النحل :

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42)

كانت هجرة المسلمين مثار خوف كبراء الكفار ، وأصحاب الرأى فيهم ، لقد تطيروا منها ، لأنها تشى بأن دين محمد يغادرهم لحين ، ثم يفد عليهم من خارج مكة فيكتسحهم ويثأر منهم ويدمر مناعتهم وعزتهم ، ولقد حاولوا فى كل هجرة أن يلحقوا بمن يهرب من المسلمين ، و لكنهم لم يدركوا أحدا منهم .

.. ولم تهدأ وساوس قريش ، ولم يكف أهل الرأى فيها عن التفكير والكيد لمحمد ﷺ ، ولقد شاركهم إبليس فى تآمرهم ، ثم قرروا أن يعرضوا على النبى ما ظنوا أنه سيغريه ، ويدير رأسه عن ذاك الطريق الذى يهدد نفوذهم ، ويبدد هيبتهم بين القبائل ، ويكفه عنهم ، ولقد أنابوا عنهم عتبة بن ربيعة ، وهو من حكمائهم ، ليقوم إلى محمد فيكلمه ، ويعرض عليه ما ارتأوا .

جلس عتبة بين يدى النبى يداهنه ، قائلا :

ـ يا ابن آخى ، إنك منا حيث علمت من الحسب والشرف والفضل ، والمكنة فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

قال له النبى ﷺ :

ـ قل يا أبا الوليد .

قال عتبة :

ـ يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .. فإن الجنى يكون أحيانا شديدا على الرجل حتى يداوى منه .

قال محمد الصادق ﷺ :

ـ أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ .

قال :

ـ نعم .

قال الأمين ﷺ :

ـ فاسمع منى .

قال عتبة :

ـ افعل .

قرأ رسول الله ﷺ سورة فصلت : بسم الله الرحمن الرحيم

حم (1) تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)

.. وهنا انتفض عتبة انتفاضة هائلة ، وقفز يقفل فم النبى بيد مرتعدة من شدة الهول الذى أصبح عليه مما سمع من نذير ووعيد ، وقال للنبى فى رجاء :

ـ كفى يا ابن أخى ما أسمعتنى .
.. لكن النبى ﷺ استمر يرتل عليه السورة حتى تلا نهايتها من قول الله سبحانه وتعالـى :
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)
ولما انتهى نبى الله ﷺ ، أردف قائلا :
ـ قد سمعت ما سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك .
.. قام عتبة وهو راغب عن القيام ، وقد غشيته من بعد الرعدة سكينة ، حتى إن أصحابه حين رأوا مـا هو عليه وهـو آت من بعيد ، قالوا :
ـ والله لقد جاء أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب عليه ، وإنا لنخاف أن يكون قد فتنه محمد .
وحين استقر بينهم ، سألوه عما وراءه ، قال :
ـ إنى سمعت قـولا والله ما سمعت مثله من قبل ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسـحر ، ولا بالكهانـة ؛ يا معشر قريش : أطيعـونى واسمعوا قولى ، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيـه ، فو الله ليكـون لقولـه الذى سمعتـه منـه نبـأ عظيـم ، فإن تصبه العـرب فقـد كفيتمـوه بغـيركم ، وإن يظهـر عـلى العـرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .
قالوا فى خبث ، وقد أعدوا نبال الردة ، وأطلقوا سهامهم :
ـ سحرك والله يا أبا الوليد بكلامه ، وأعجبك طعامه ، فإن كنت فى حاجة إلى مال جمعنا لك من بيننـا ما يغنيك عن طعام محمـد .
.. ونجحت الحيلة عـلى الرجـل لأنفتـه وعـزة نفسـه ، وأصـابته السـهام ، وانتفضـت حميـة الجاهليـة وعنجهية الجهل ، فأعلن عتبة أنه لن يكلم محمدا من بعدها أبدا .
ورغم تراجع عتبة عن قولة الحق التى قالها فى محمد ، فإنه قد أثـار حفيظـة بطـون قـريش ، مـن أن يكون لبنى عبد المطلب شرف النبوة زيادة على ما تميزوا به عنهم من رفـادة الحجـيج ، وحفـر زمـزم ؛ إذن فعليهم أن يمنعوا تمام هذا الأمر بكل غال ونفيس .
واجتمع قادة البطون ، وتوجهوا إلى أبى طالب ، وقالوا له :
ـ يا أبا طالب لقد عرضنا على محمد أن نهبه من أموالنا حتى يكون أكثرنا مـالا ، ونولـه أمرنـا فيكـون أعزنا سلطانا ، وتكون له الإمرة فينا ، ولكنه لم يقبله منا ، فاسع إليه ، واعرض عليه الأمر ، فلعله يقبـل منك ما لم يقبله منا ، فأنت أقرب إليه ، وأحب له من قريش مجتمعة .
.. بعث أبو طالب فى طلب ابن أخيه ، وهو مستبشر بما عرض أهله ، وقص عليه ما حدث ، ثم تساءل :
ـ فأنظر ماذا ترى ؟.
.. ونظر النبى طويلا فى وجه عمه ، وأدركت عينه البصيرة مدى إقبـال عمـه وقبولـه لمـا عـرض عليـه ، فدمعت عيناه ، فلقد كان يظن أن عمه قيد أنملة أو أقل ، ليدخل فى دين الله ، ولم يكن أمام النبى إلا أن يجيب ، فقال بعد صمت طال أم قصر :
ـ والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمـر مـا تركتـه حتـى يتمه الله أو أهلك دونه .
أطرق الشيخ فى تدبر ، ثم رفع رأسه ، والتقطت عيناه رقرقة الدمع فى عينـى الحبيـب فتوجـع القلـب وقال فى عزم :
ـ أنت وما تريد يا ابن آخى فأمض فيما تحب ، وما كنت متخليا عنك أبدا .

سنوات ثلاث والدعوة تتم دون الجهر بها ، فالنبى ورفاقه يدعون إلى الإسلام من يثقون به من أهليهم ، وكانت استجابة من دخلوا فى دين الله أقل بقليل ممن استكبروا ولجوا فى عتو ونفور .

.. وكان النبى يعرض نفسه على الوفود التى تجئ إلى مكة للحج أو للتجارة ، وأهلها ما بين متردد أو رافض ، وبينما هو يتحدث إلى أحد الكبراء أملا فى دخوله لدين الله إذا بعمرو بن قيس بن الأصم ، وهو ابن خال زوجه خديجة ، وهو أعمى قد حسن إسلامه ،يسمع صوت النبى ، فيقبل عليه مقاطعا يقول :

- يا رسول الله أرشدنى .

فأعرض عنه النبى ، واستمر فى حديثه لمن يحدثه ، قائلا:

- أترى فيما أقول بأسا .

فيقول الرجل فى غير اهتمام :

- لا .

استغفر النبى ربه ، وأرسل فى طلب عمرو ، وقربه إليه معتذرا عن ما حدث ، وسأله عما كان يريد أن يسأل عنه ، وأجابه على ما أراد .

ونزل جبريل عليه السلام على نبى الله ﷺ ، بآيات من سورة عبس ، حاملا عتاب ربه لانصرافه عن عمرو :

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)

.. ومنذ ذلك اليوم لم ينصرف رسول الله ﷺ عن سائل يسأله حتى ينصرف السائل عنه ، وهكذا علمه ربه .

.. ثم جاءه جبريل عليه السلام بأمر ربه مبلغا ، بآيات من سورة الشعراء :

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217)

.. ويسارع النبى بصنع طعام يحمله مع على إلى دار عمه أبى طالب ، ثم دعا أعمامه إليه ، فإذا بهم يأتون ملبين ومعهم أبناؤهم !!.

قال لهم رسول الله ﷺ ، يدعوهم إلى الطعام :

- خذوا باسم الله .

ولما لحظوا قلة الطعام أوغلوا فيه حتى لا يكفيهم فيحرجوا رسول الله ، ويظهروا فقره ، ويحطوا من قدره ، فتتقول عنه مكة بأنه أضعف من أن يشبع ضيفه !! .

ولكن ما كان الله مخزيا نبيه ، فحلت البركة ، فأكلوا حتى أصابتهم التخمة من كثرة ما طعموا ، وتبقى طعام كثير ، فالطعام لا يكاد ينقص ؛ وإذا بعمه عبد العزى يقول لمن حوله والغيرة تنهش قلبه :

- والله لقد سحركم صاحبكم .

وضاق صدر رسول الله مما قال الكاذب ، وأمسك عن الكلام ، وأنفض القوم .

وعاد جبريل عليه السلام إلى رسول الله يستحثه فى عتاب بآيات من سورة الحجر :

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

وأعاد النبى المحاولة فأكثر من الطعام ، ثم أرسل عليا إلى أعمامه يدعوهم ، ولما فرغوا من الأكل بادر عبد العزى فقال :

ـ يا محمد هؤلاء عمومتك ، تكلم بما تريد واترك الصبأة ، فإنى لم أر أحدا قط قد جاء قومه بما هو شر مما جئتنا به .

وأشار جبريل إلى النبى ﷺ بأن لا يعبأ بعدو الله و يصبر ، فقال النبى :

ـ يا بنى عبد المطلب إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو نار أبدا ، وإنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيتى ووارثى ؟ .

فأحجم الموجودون عن إجابته إلا على بن أبى طالب ، فلقد أسرع يلبى دعوة رسول الله ﷺ ، وهو أصغر الموجودين سنا وجسما :

ـ أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه .

وتنتفخ أوداج أبى طالب بالفخار ، وهو يرى ابنه عليا يكبر الرجال فيتقدمهم ، ويتساءل بينه وبين نفسه :

ـ أى دين هذا الذى جعل الصبى رجلا يطاول أعناق العماليق فيفوقهم ؟! .

وكرر رسول الله ﷺ سؤاله مرة ثانية وثالثة :

ـ آيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيتى ووارثى ؟ .

.. وعلى ينهض وحده فى كل مرة ليجيبه ملبيا :

ـ لبيك يا نبى الله ، أنا أكون وزيرك عليه .

.. وهنا ضرب النبى ﷺ بيده على يد على ، وقال :

ـ إن هذا أخى ووصيتى وخليفتى فيكم .

وانتفض عبد العزى غاضبا يقول :

ـ يا بنى عبد المطلب ،هذه والله السوءة ، خذوا على يده ، وامنعوه عن هذا الأمر بحبس أو بغيره ، قبل أن يأخذ على يده غيركم .

ولم تستطع أخته صفية بنت عبد المطلب أن تسكت على غلظته ، فقالت له :

ـ أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟.. فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من أصل عبد المطلب نبى ، وإنه لهو .

لوح عبد العزى بيديه فى وجهها وصرخ فيها :

ـ هذا والله الباطل ، وكلام النساء فى الحجال .

قال أبو طالب فى عزم :

ـ والله لندافع عنه ما بقينا .

.. وتفرق الأهل، ولم يستجب منهم أحد إلا من سبق وهما : عمته صفية وعلى ؛ ومحمد ﷺ صابر فى ظاهره ،باك فى أعماقه أسفا وحزنا عليهم ، فيهون عليه ربه ، ويتنزل الإفصاح العظيم ، فى سورة الشعراء :

طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون (6)

.. وواصل رسول الله الجهر بالدعوة ، وحين مر بجماعة من قريش كانت مجتمعة على جبل الصفا ، وقف يخطبهم قائلا :

ـ أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، أكنتم تكذبوننى ؟ ..

قالوا مجمعين :

ـ والله ما جربنا عليك كذبا .

قال نبى الله ﷺ :

ـ يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النـار ، فإننى لا أغنى عنكم من الله شيئا ، إنى لكم نـذير مبـين بين يدى عذاب شديد، إن مثلى معكم مثل رجل رأى العدو ، فانطلق يريد أهله خشية أن يسبق إلـيهم ، فجعل يهتف : يا صباحاه ، يا صباحاه ، أتيتكم ، أنا النذير العـريان ، إن اللـه قـد بعثنـى إلى الخلـق كافـة ، وإليكم خاصة ، فقال : "*وانذر عشيرتك الأقربين ." وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين فى الميزان : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ؛ فمن يجيبنى إلى هـذا الأمـر ، ويـؤازرنى على القيام به ؟.

وقبل أن يلفظ أحد بكلمة ، سارع عبد العزى يقول مؤنبا النبى ﷺ ، مسخفا لقوله:

ـ تبا لك ، ألهذا جمعتنا .

.. وانفض القوم ، ولم يجبه أحد .

وأنزل الله فى سورة المسد من القول ما زلزل كيان عبد العزى ، تأديبا له على تطاوله :

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5) سورة المسد

.. وذاع خبر السورة فى قريش وسكب المشركون الزيت على النار ، حتى تكون الفتنة من داخل البطن الواحد ، خاصة وأبو طالب لا يريد أن يحيد عـن دفاعـه عـن ابـن أخيـه ؛ ويتكفـأون مسرعين إلى عبـد العزى يسمعونه ما أنزل فيه .

ويستشيط أبو لهب غضبا، فيصحب ولديه وكانا قد خطبا ابنتين من بنـات الرسـول فـيردان خطبـتهما ويطلقانهما، بل ويتطاولان عليه فيسمعانه ما لا يحب أن يسمع ، ويسيئان إليـه فيتفـل أحـدهم عـلى وجهه الشريف !! .

.. وتمسك أم جميل زوج أبى لهب بحجر ، وتخرج من دارها صـائحة مولولـة مقسـمة أنهـا ضـاربة فـم النبى ﷺ ، بذاك الحجر جـزاء ما قـال .

فى الكعبـة جلس النبى يصلى ، وجعلـه الله فى ناحية عين أم جميل العمياء ، فلقد كانت عوراء ، فلـم تر محمدا ﷺ رغم تدقيقها فى وجوه من حولها ، فأخذت تسب وتشتم " مذمما " ، ثم انصرفت تأكلهـا نار غضبها .

وحين صادف أبو جهل رسول الله يطوف بالبيت ، لم يسـتطع أن يخفـى غضـبته ، وسـبه سـبا مقـذعا ، فلقد كان يتوقع أن السماء لا بد وأنها قائلة كلمتها فيه هو أيضا ، كما قالتها فى أبى لهب فيلحقـه العـار والهوان ، كما لحق بصديقه ، والرسول ﷺ صابر لا يرد عليه ، حتى انتهى من طوافه ، وتركه وانصرف .

.. ويسمع عمه حمزة بن عبد المطلب وهو عائد من القنص ، امـرأتين تتشـدقان بمـا فعـل الحكـم بـن هشام بمحمد ، فلم يحتمل حمزة سماع المزيد ، وأسرع إلى حيث كان الحكـم يجلـس مـع أصـحابه مـن المشركين ، وهوى على رأسه بقوس الصيد فشجه ، وقال له متحديا :

ـ كيف تسب محمدا وأنا على دينه ؟ .

وما كان حمزة على دين محمد ،ولكنه التحدى ، وهى حمية الجاهلية الأولى ، ولقد شاء الله أن تكون غيرة حمزة لابن أخيه سببا فى دخوله فى دين اللـه .

ـ 9 ـ

راح أولياء الشيطان يفكرون ويعملون الفكر فى تآلف لم يعتده أهـل مكـة ، أهـل الشـقاق والعصـبية ، والتشرذم ، فلقد جمعهم الحقد كل التجمع ، خاصة وقد اكتشفوا أن التخويـف والتعـذيب لم ينجحـا فى إثناء الناس عن الدخول فى دين الله ، بل هم يتكاثرون ، فها هو ذا حمزة قد أعلن إسلامه ، ثم ها هو ذا أبو ذر الغفارى يحمـل الدين الجديد إلى خارج مكة ،

وبهذا لم يعد الأمر داخل مكة وحدها ، بل صار خارجها أيضا ، وليس بمستبعد أن يفد صحابة محمد من الخارج ، بعد أن فروا إلى النجاشى ملك الحبشة ، ليقاتلوهم فى ديارهم فيخرجوهم ، أو يضيعوا أمرهم بين القبائل ؛ ولم لا وصحابته يعيشون فى سلام ، وينشرون دينهم ، وهم إذا ما ذاع أمرهم ، وقويت شوكتهم ، هلكت قريش .

إذن لابد من إتباع أسلوب جديد ، فليبعثوا بالهدايا إلى ملك الحبشة وإلى البطارقة من أصحاب النفوذ لديه ، وليطلبوا منهم أن يسلموهم من نأوا بدينهم عند مليكهم .

تصايح المشركون وقد أدركوا هول الخطر الذى يحيط بهم ، وتسابقوا يجمعون الأموال والهدايا التى سيرفعونها إلى النجاشى وبطارقته ، وكانوا يعمدون إلى الإعلان عن فعلهم ليغيظوا به المسلمين ، ويهزوا ثقتهم ، ويوقعوا الرعب فى قلوبهم .

وكان رسول الله يسمع ، ويألم ، ويتوسل إلى رب العالمين أن يحفظ صحابته ، وأن يهلك فعل الكافرين ؛ ويأتيه جبريل موضحا له معلما مبينا فى سورة مريم :

أَلَمْ تَرَى أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)

.. وينزاح القلق سريعا عن نفس نبى الله ﷺ ، فلقد علمه ربه أن مكر الله شديد ، وأن ما ينتظر صحابته من جزاء فى الآخرة لتهون أمامه كل المشاق ، بل إن الحياة نفسها أمام وعد الله لا تساوى جناح بعوضة .

سافر وفد إلى الحبشة بقيادة اثنين من أحكم رجال قريش ، وقد حملوا بالهدايا ، وكشف لهم إبليس عن أسهل الطرق للوصول إلى قلوب البطارقة ، وعملوا بما علمهم ، فتزلفوهم وقدموا لهم الهدايا ،وأغروهم بالموافقة على تسليم المهاجرين فوافقوهم ، ووعدوهم بأن يجعلوا الملك يوافق هو أيضا .

.. هكذا مكروا ، ولكن مكر الله أشد ، فلقد جعل النجاشى يطلب الاستماع إلى المسلمين قبل أن يتخذ فيهم رأيا .

اختار المهاجرون أن يكون المتكلم عنهم جعفر بن أبطالب أخو على وابن عم رسول الله ﷺ ، فلما سأله الملك :

ـ ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ .

أجابه جعفر قائلا :

ـ أيها الملك ، كنا قوم جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ؛ حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، ووصل الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ؛ فعبدنا الله وحده ، واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ؛ فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا عن عبادة الله سبحانه ، إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل من الخبائث ما كرهنا ؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك .

قال الملك :

ـ هل معك مما جاء به نبيكم شئ ؟ .

فتلا جعفر من سورة مريم :

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا(9)قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) يَايَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

.. فبكى الملك بكاء شديدا حتى ابتلت لحيته ، وبكى الأساقفة تأثرا بقول الله ، ثم قال الملك للمبعوثين :

ـ إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة، فانطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم، ولا يكون هذا أبدا.

ولم يهدأ الحقد فى نفس عمرو بن العاص ، فظل ساهرا الليل بطوله يبحث عن وقيعة يحدثها بينهم وبين النجاشى، إلى أن ألهمه شيطانه إلى حيلة جعلته متيقنا من أن النجاشى سيسلمهم إليه، إن لم يكن سيأمر بقتلهم.

وما إن أشرق النهار ، حتى طلب عمرو المثول بين يدى الملك ، فلما أذن له قال :

ـ أيها الملك العظيم ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا قبيحا ، فأرسل واسألهم فيه .

وطلب الملك " جعفر " ، وسأله عن حقيقة ما جاء فى مريم ابنة عمران فواصل جعفر القراءة ، من سورة مريم :

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)

.. وهاجت البطارقة ، وعلا صوتها احتجاجا على القول بأن عيسى ليس ابن الله ، ولكن الملك قال لهم :

ـ والله ما قال مثل ما قيل إلا عيسى بن مريم ، وإن غضبتم ، ردوا على الرسل هداياهم فلا حاجة لى بها ، فو الله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى .

ورد الملك هدايا وفد قريش ، وأمر بحفظ جوار المسلمين .

وتحولت شياطين قريش غضبى تبحث عن سبيل جديد لإضعاف موقف محمد ، فأرسلوا عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث إلى طيبة ، ليسألا عتاة اليهود من الأحبار كيف يكون الكيد لمحمد وصحبه ،

ويطلبوا منهم الأدلة والبراهين التى تعجزه وتقلل من شأنه ، وتشكك فى أمـر الـدين الجديـد ، فسـألهم الأحبار :

ـ أهو يعرف القراءة والكتابة ؟ .
فنفيا قائلين :
ـ لا نظن أن يكون على دراية بشىء من ذلك كأغـلب أهل مكـة .
.. ثم أضافا قائلين :
ـ ولقد تبعه على دينه أراذلنا والسفلة منا .
فضحكت الأحبار لذلك ، ونصحوهم بأن يحاجوه بأمور حددوها لهما ، ستعجزه باليقين .
.. وعاد المبعوثان إلى مكة ، ودعت قريش رسول الله للمناظرة ، وقد ملئوا كبرا وثقة فى النصر ، وسـألوه عن أمور ثـلاثة :
ـ من هم الفتية الذين ذهبوا فى العصور الهالكة ؟ ..
ـ وما نبأ رجل طواف ؟ ..
ـ وما الروح ؟ ..
فقرأ رسول الله عليهم ما جاءه من عند ربه عن أهل الكهف ، قال تعالى من سورة الكهف :
أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13)
أما عن الرجل الطواف ، فقال رب العالمين ، فى سورة الكهف :
وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا (93) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دكا وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)
.. أما عن الروح ، فقال تعالى فى سورة الإسراء :
وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا (85)
.. وحين سمع الأحبار بما قال رسول الله ﷺ ، شهدوا بأنه الحق ، وأحبط الذين كفروا .

ـ 10 ـ

أعلن عمر بن الخطاب إسلامه ، بعد أن سمع كلام الله يتلى فى دار أخته ، وكانت قد أسلمت سرا هى وزوجها ، وقد أخذه العجب أن تسمع قريش بمثل هذا الذكر الحكيم وتفر منه .
وحين جلس ابن الخطاب ، بكل شموخه وقوتـه وحكمتـه بـين يـدى رسـول اللـه ﷺ يـزداد اسـتماعا ، ويمتلئ خضوعا وخشوعا وخشية لله الواحد ، وحين تلا رسول الله ﷺ من سورة التكوير :
ـ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)

.. ولما وصل رسول الله ﷺ إلى هذا الموضع من الآية ،إذا بالنشيج المكتوم يعلو ، وإذا بابن الخطاب وكأنما قد أصابته الحمى ، فلقد أخذته الرعدة ، وتهدج صوته ، وقال فى رقة بالغة :

ـ والله لقد أريتنيها يا رسول الله ، وإنى لأرى ابنتى الآن رأى العين وقد أسقطتها فى الحفرة لأدفنها ، ورحت أهيل عليها التراب ، فإذا بها تمد يدها الصغيرة ، فتنفض التراب عن شعر ذقنى كلما علق به .

وبكى الرسول ﷺ تأثرا ، وهو يستغفر ربه من غلظة القلوب ، وغفلة الجاهلية ، وبكت الصحابة ، وراح النبى ﷺ يسأل عمر معاتبا :

ـ أهانت عليك يا عمر ؟ .

فيجيبه عمر وقد زاد ألمه وندمه ، قائلا :

ـ والله إنها الجهالة يا رسول الله ، فهل ربى غافر لى ؟.

قال النبى ﷺ :

ـ يا عمر .. يقول رب العزة سبحانه وتعالى : " يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة ." .. يا عمر يقول رب العزة سبحانه وتعالى :" إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ." فاستغفر لذنبك .

قام عمر من بين يدى رسول الله ، ولسانه لا يكف عن الاستغفار ، وقد أراحه ما علم ، وزاده تثبتا وإيمانا ، وأصبح كل همه أن يعلن للملأ من مشركى قريش إسلامه .

ذهب أول ما ذهب إلى خاله ، عدو الله أبى جهل عمرو بن هشام ، طرق عليه الباب ، وحين فتح له ، هش فى وجهه وقال له :

ـ ألا أبشرك ببشارة ؟ .

قال خاله :

ـ وما هى ؟ .

قال ابن الخطاب :

ـ إنى آمنت بالله ورسوله محمد بن عبد الله ، وما أنزل عليه .

صفق أبو جهل الباب فى وجه ابن الخطاب ، وهو يزأر :

ـ قبحك الله ، وقبح ما بشرتنى به .

.. لم يكتف ابن الخطاب بما فعل ، بل ذهب إلى " جميل بن حبيب فى مجلسه بجوار الكعبة ، وكان ممن عرف عنهم سرعة نقل الحديث ، فمال عليه وقال له :

ـ أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ، ودخلت فى دين محمد ؟.

انتفض جميل يصرخ فيمن بالجامع :

ـ يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ .

وكان عمر يقف وراءه فزجره قائلا :

ـ كذبت ، بل إنى قد أسلمت وتبعت دين محمد ، وشهدت بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

تنافر الموجودين بالجامع ، وحملوا على عمر ، وقفز عتبة بن ربيعة على ظهره فطرحه عمر أرضا ووضع إصبعه فى عينه فصار يصرخ مستجيرا ، فتكالب الناس على عمر يضربونه ويضربهم حتى تمكنوا منه فطرحوه أرضا .

وجاء فرج الله بظهور أبى جهل ، فقد صعد بأعلى مكان مستكشفا ما يحدث ، وأنطقه الله ، فصرخ فى الناس معلنا أنه مجير ابن أخته ، فانفضوا عن عمر .

.. وفى الصباح ألح عمر على رسول الله ﷺ إلحاحا شديدا أن يظهر صلاتهم ، ويخرج مع المسلمين إلى الجامع ليصلوا فى الكعبة ، واستجاب النبى لرجائه ، وخرج المسلمون صفوفا يتقدمهم عمر ويحمى مؤخرتهم حمزة ، ودخلوا إلى المسجد .

كان المشهد مهيبا ، وزادت المفاجأة من وقعه على النفوس ، فبدا أكثر هيبة وأشد وطأة ، فلم يكن أحد فى مكة كلها ، حتى المسلمين : من أظهر منهم إسلامه ، ومن أخفاه ، يرقى تصوره إلى هذا المشهد الذى خرج فيه المسلمون ، وفاجأ به ابن الخطاب الحياة جميعها .

.. أصيب الكفار بالفزع ، وانتابتهم الفرقة ، فلم يتنادوا ، ولم يجتمعوا ، بل انصرف كل منهم إلى ما هو فيه من شأن ، فلم يعترضوا سبيل المسلمين ، حتى انتهوا من صلاتهم وغادروا المسجد ، ثم صاروا يتنادون ويتلاومون على ما فرطوا فيه من ترك للمسلمين .

ومنذ ذلك اليوم سمى عمر بن الخطاب : الفاروق ، لأنه فرق بين الحق والباطل .

وتناقلت الألسن نصرة المسلمين ، وكما تسرى النار فى الهشيم لا تفرق بين أخضر ويابس ، ولا بين حق وباطل ، كذب وصدق ، ولما وصل خبر الحادثة إلى المهاجرين بالحبشة ، صار يقول :

ـ لقد دخل أهل مكة فى دين الله أفواجا .

.. وجعلت الفرحة من أمضهم الشوق إلى الوطن ، يتدافعون عائدين إلى قريتهم : فلم والحال قد أصبح كذلك ، يبقون فى الغربة بعيدا عن الحبيب والأحبة ؟! .

كان وقع عودتهم على الكفار كسكب القار على النار ، فازدادت كراهيتهم لرسول الله اشتعالا لتلتهم البقية الباقية من العقل والتعقل ، ولم يعد أمام أنصار إبليس من سبيل سوى قتل الرسول ، فلقد أدركوا بعد أن سلكوا كل السبل : أنه لن يوقف دعوته إلا القتل ، واجتمع رأيهم على أنه لا سبيل للخلاص منه إلا بفداء منهم : فى ظاهره التضحية ، وباطنه المكر والخداع ، وذهبوا إلى أبى طالب ومعهم أملح فتيان قريش قائلين :

ـ يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد وأجمل فتى فى قريش ، فخذه وأتخذه ولدا فهو لك ، وسلم لنا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعتنا وسفه أحلامنا .. فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

وتألقت بصيرة أبى طالب ، فكأنه قد سمع ورأى كل ما تآمروا عليه ، فأجابهم متعجبا من غرابة منطقهم :

ـ والله لبئس ما تساوموننى عليه ، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ، هذا والله مالا يكون أبدا .

وبمنطق الضلال الذى كانت قريش عليه قالوا :

ـ واللات لقد أنصفك قومك يا أبا طالب ، وجهدنا على التخلص مما تكره ، فما نراك تريد أن تقبل منا شيئا .

وانصرفوا من عنده غاضبين ..

.. ولكن رحى القتل لم تنصرف عنهم ، ودارت بالحقد تطحن عظام رؤوسهم ، قبل أن تشحذ عقولهم ، وقر قرارهم بعد جدل طويل شارك فيه إبليس ، بأن السبيل للخلاص من محمد سيكون أهون ، لو بعدوا عن القيام بقتله بأيديهم ، فما رأوا عليه ابا طالب يؤكد أن دم محمد لن يتفرق بينهم ، وسوف يطالب به بنو عبد المطلب ، إن لم يكن بنى هاشم وانسبائهم وأنصارهم ، وقر رأى المتآمرين على استئجار شخص من خارج قريش ليقوم بعملية القتل ، و يدفع المتآمرون دية محمد لأهله من بنى هاشم .

ولما عرضوا الأمر على بنى هاشم أبوا ، وآزرهم فى ذلك بنو عبد المطلب بن عبد مناف .

اشتد الغضب بالمتآمرين ، وتنادوا وتنافروا ، ثم أجمعوا على أن يخرجوا من بينهم الرافضين لقتل محمد ، وينبذوهم ويحاصروهم فى شعب أبى طالب .

وحين علم رسول الله ﷺ بما عزمت عليه قريش ، أشار على صحابته ممن عادوا إلى مكة من المهجر ، أن يلحقوا هم وغيرهم من المسلمين ، بإخوانهم الذين بقوا بالحبشة ، وأن يفروا بدينهم .

أما محمد ﷺ فبقى بمكة مع قلة قليلة من الصحابة ، صابرا محتسبا ..

الفصل السادس :

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

سورة الأحقاف

ـ 1 ـ

اجتمعت بطون قريش وتكاتبوا على أن يحصروا محمدا ، ومن رفضوا قبول الدية عـن قتلـه فى شـعب بنى هاشم ، فلا يغادروها إلا للحج ، وأن يمتنعوا عن معاملتهم فلا يزوجـوهم ولا يتزوجـونهم مـنهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يبيعون لهم ، ولا يسمحون لأحـد ـ وإن كان من غيرهم ـ بـأن يصـلهم ، إلى أن يسلموهم محمدا ؛ ثم حملوا صحيفتهم التى كتبوها ، ووضعوها فى بطـن الكعبة .

.. دخل الشعب بنو عبد المطلب ، إلا عبد العزى " أبو لهب "، فهو وحده قد خرج عن إجـماع قومـه ، وإنحاز إلى أصحاب الصحيفة ، ودخل مع بنى عبد المطلب ، بنو هاشم.

كان أبو طالب فى غاية القلق على ابن أخيه ، من مكر قريش بعد ما أظهروه من عداوة مجنونة ، فلم يكن يدع رسول الله ﷺ وحيدا للحظة واحدة ، ويعهد إلى الفتية الأشداء من قومه بمرافقته وحراسـته ، ولشدة حـدبه على محمد ، كان لا يتركه يبيت فى مكان نام فيه ليلته السابقـة ، بل كان ينيمه كل ليلـة فى فراش ابن من أبنائه ، حتى يطمئن عليه من غدر أعدائه .

.. كان رسول الله ﷺ يألم غاية الألـم لما سببه ويسببه لأهلـه مـن شـقاء ، وكثـيرا مـا أفصـح لعمـه أبي طالب بذلك ، فكان كلامه يزيد عمه إصرارا ، فيقول له فى عزم :

ـ والله لا نسلمك لهم أبدا وإن هلكنا دون ذلك .

.. وكان ألمه الأكبر الذى يؤرقه ليل نهار ، أن أهله رغم كرم موقفهم منه ، لم يرجعوا عن شركهم ، وهو من كان يأمل أن يثابـوا عند الله لحسن ما أبلوا معه ، فنصروه وعزروه ، ولكن ها هو ذا أملـه يتبـدد ، لأن ما هم فيه من معاناة وضنك ، ليس لله ، بل هو من أجل كبريائهم ، وانحيازهم لأصلابهم .

.. لقد سهر رسول الله ﷺ ليالى طوالا يناجى ربه ، قائلا:

ـ اللهم اهد آل محمد إلى الإسلام .

ويظل على توسله ، حتى تكاد نفسه تتبدد حسرات ، وكيف لا وهو يعلم أن مآلهم إلى النار .

وقد عز على الرحمن الرحيم ما أصبح عليه عبده محمـد ﷺ من هم وحـزن ، فـأنزل فى هـذا الموقـف قرآنا ، يخفف به عن قلبه :

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56) سورة القصص

.. ولما اشتد الضنك بالقوم ، جاءه جبريل يبشره بانقضاء العهد الـذى تعاهـد عليـه المشركون ، وأسرع النبى ﷺ إلى عمـه ، يحمل ما تنزل عليه ، قائلا :

ـ أبشر يا عم ، إن صحيفتهم ببطن الكعبة ، قد أكلتها الأرضة ، ولم يتبق منها إلا اسم الله .

قال أبو طالب :

ـ أربك أخبرك ؟ .
قال محمد ﷺ :
ـ نعم .

ـ 2 ـ

.. خرج أبو طالب فى جماعة من قومه إلى الجامع ، فلما رأة القرشيون ، توقعوا أنه قد ضاق بحصارهم ، وبامتناعهم عنه ، وهو من كان فيهم الكبير المطاع المتصدر لمجالسهم ، وأنه بقدومه يسعى لأن يسلمهم ابن أخيه ، فأسرعوا يلتفون حوله ، وعيونهم تبرق بالأمل .
قال أبوطالب :
ـ يا أبناء عم ألا تعودون إلى حكمة العقل ،فتحتكموا ونحتكم معكم متراضين على ما كتبتم فى صحيفتكم ، وليكن ما تعاهدتم عليه ، هو العهد والحكم بيننا وبينكم ؟ .
أجابوه فى سعادة المنتصرين :
ـ واللات والعزى ، إنه لعين العقل منك يا أبا طالب .
ثم أوفدوا من أحضر الصحيفة من داخل الكعبة ، وحين اطمأن أبو طالب إلى كونهم لم يفضوها ، قال :
ـ إن كان ما كتبتم هو كما هو : سلمتكم ابن أخي ، وإن كان الله قد شاء أن يغيره تنقضى صحيفتكم ، وآن لكم أن ترجعوا عن مقاطعتكم بانفضاض عهدكم .
.. بلا تردد وافقوه على ما قال ، وتسابقت أصابعهم على فض الصحيفة ، وحين كشفوا عن ما بها ، ران صمت عميق على الحاضرين ، وألجمت الدهشة ألسنتهم ، وبهت الذين كفروا ،بعد أن وجدوا الأرضة قد أكلت كلماتها ، ولم يتبق مما كتب شئ سوى كلمة : الله .
وتحقق قول رسول الله ﷺ ..
وجن جنون المشركين .
وحين أفاقوا من هول ما رأوا ، تصايحوا متراجعين عن ما ارتضوه ، وعاهدوا عليه ، وقالوا لأبى طالب :
ـ إن هذا إلا سحر ابن أخيك .
وانفضوا من حوله .
وعاد المحصورين ثانية إلى الشعب .
وازداد القرشيون بغيا على من حصروهم .
عـام ..
وعام ..
وعام ..
.. أعوام ثلاثة بالتمام والكمال .
.. ورسـول الله ﷺ وأهلـه محصورون فى الشعـب ، يعانون من القطيعة وضنك العيش .
: فأى قسوة تلك التى قدت منها قلوب أهلك يا مكة ؟!!.
: كيف يرتضى الأهل لبعضهم البعض مثل تلك الجفوة ؟!!.
.. ولكنه الابتلاء .
.. واختبار القدرة على الصبر .
.. ثم يأتى الله بالفرج .
.. ويجمع الله أربعة من بطون متفرقة من قريش ، وتتنزل الرحمة فى قلوبهم ، وهم: هشام بن عمر وبن حبيب بن لؤى ، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى ، والمطعم بن عدى بن نوفل ، وزمعة بن الأسود بن أسد ، ويدور بينهم النقاش حول ما فعلته وما تفعله قريش فى أأصل أصولها من : حصرـ وجور واعتداء ، و قطع للرحم ؛

وانتهى بهم الحديث إلى إجماع على أن ما يحدث ليس فيه من الخلق ، ولا من المروءة شيء ، وأنهم يجب أن يسعوا لنقض تلك الصحيفة الظالم ميثاقها ، واتفقوا على أن يجتمعوا فى ليلتهم ، لحظة اكتمال ندوة قريش حول الكعبة ، ويجلس كل منهم فى بطنه ، ثم يعلنون ما أجمعوا عليه .

- 3 -

كان القمر يطل على الكعبة فى حياء من وراء ستر السحاب ، فلقد كان قمر نهايات الشهر ، وقد جلست بطون قريش فى الجامع ، كل بطن يبحث شئونه أو يلوك باللسان سقط الكلام .

.. فجأة تألق نور القمر ، وكأنها حنجرة زهير بن أبى أمية بقوة انطلاقها ، قد بددت السحب التى كانت تحجب النور، قال زهير فى غضب ، وهو يرمى ما بيده من طعام :

- يا أهل مكة أين ذهب بكم غضبكم ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم من أرحامنا هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع ، والله لا أقعد فى مجلسكم هذا ، حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

وحين سمع أبو جهل ذلك ، ترك مجلسه ، وأقبل يصيح فى زهير ، قائلا :

- كذبت ، والله لا تشق .

فانتفض زمعة من مجلس قومه واقفا ، وقال لأبى جهل :

- أنت والله أكذب ، فما رضينا بكتابتها حين كتبت .

وهب هشام واقفا ، وأعلن تصديقه لزمعة فيما قال ، وأعقبه المطعم بن عدى مؤازرا ؛ وبهت أبو جهل مما سمع فألقمه الله حجرا فى فمه فما استطاع حديثا ، وانكفأ راجعا إلى مجلسه ، وقام المطعم إلى الكعبة فأخرج الصحيفة ، ومزق ما تبقى منها .

.. وخرج المحصورين من الشعب إلى الحياة يمارسونها كسابق عهدهم .

.. اشتد الأمر على أبى طالب ، وزهد الحياة ، فكلما فكر فيما فعل به قومه ، وهو من كان لهم درءا يدفع عنهم السوء ، استكثر وقوعه ، وتألم غاية الألم ، حتى أصبح لا حديث له إلا عن ما كان فى الشعب ، وما كان من مظلمة قريش ، فاعتلت صحته اعتلالا شديدا ، وزاد سقمه ، ولما أحس باقتراب لحظة الموت ، جمع إليه بنى هاشم ، وقال لرسول الله ﷺ :

- يا ابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك ، قد جمعتهم ليعطوك وليأخذوا منك ، فينتهى ما بينكم من جفوة .

قال رسول الله ﷺ :

- كلمة واحدة لتعطنيها ، فتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم .

قال أبو جهل ساخرا :

- نعم ، وأبيك ، وعشر كلمات إن أردت .

قال الرسول ﷺ :

- تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه .

صفق الحضور بأيديهم عجبا ، وقالوا :

- إن هذا لشىء عجاب ،أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ، ما سمعنا بهذا حتى فى ملة النصارى ؟!! .

.. وتداخلت كلمات الحضور وتصايحوا ، كل يدلى بدلوه ، غير مقتنعين بما قال رسول الله ﷺ ، ولكن أبو طالب أشار عليهم بالصمت ، فسكتوا تأدبا واحتراما ، وخرج صوته بالصدق راجيا ، يقول :

- يا بنى هاشم ، أطيعوا محمدا وصدقوه ، تفلحوا وترشدوا .

.. انفضوا من حوله ولم يعقبوا ، وإن كانوا مجمعين على أن ما قاله أبو طالب ، إنما هو من هول سكرات الموت ، أو إشفاقا على ابن أخيه من أن يصير إلى الوحدة ، ولا يجد النصرة بعد أن يهلك .

أما محمد ﷺ فلم يأبه بما قالوا ، فلقد كانت نفسه تتواثب بالفرحة ، بعد أن سمع ما قال عمه الحبيب ، ولما خلا به ، مال عليه يهمس فى رجاء ، قائلا :

ـ يا عم .. أتأمرهم بالنصيحة لأنفسهم ، وتدعها لنفسك .

قال أبو طالب ، وعيناه بالحنان تحتضنان محمدا :

ـ وما تريد يا ابن أخى ؟ .

قال رسول الله ﷺ فى رجاء شديد ، وحب أشد :

ـ أريد أن تقول : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها عند الله .

قال أبو طالب :

ـ والله يا ابن أخى لـولا مخافة السبة ، وأن تظن قريش أنى قلتها خوفا من الموت لأقررت بها عينـك ، لكنى أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

.. ثم أسلم الروح ، ومات .

وحزن الرسول عليه حزنا شديدا ..

ولم تمض سوى أيام قليلات ..

وماتت خديجة رضوان الله عليها .

وهى ، وما أدراكم من هى لرسول الله ﷺ .

فمنذ عرفها كانت نعـم الصديقة ، ونعم الزوجة المخلصة ، ونعـم الأم الرءوم ،

فلقد جعل الله فيها ، رضوان الله عليها وسلامه ، صفات الزوجة المسلمة : سكنا ومودة ورحمة .

.. لم يكن أمامه ﷺ ما يقدمه من أجلها ، إلا أن يعبر بالفعل الكريم عن عرفانـه : فصلى عـلى جثمانها الطاهر ، ودعا ربه أن ينزلها الفردوس الأعلى ، ثم دفنها بيديه الكريمتين ، وبكاها قلبه ، قبل أن تبكيها عيناه .

واشتد حزن رسول الله ﷺ ، وعصف به الألم ؛ فها هو ذا يفقد فى أيام قليلات ، أحب اثنـين إلى قلبـه : عمه ، وزوجه .

.. واحتسبهما عند الله .

.. وعاد يمارس الصبر .

.. ويدعو الناس إلى عبادة ربه .

.. وهو يعلم أن ربه لن يقلوه .

ـ 4 ـ

أصاب محمدا ﷺ ما أصابه من بلاء ، وبدلا من أن تظهر فروسية السلوك من قريش ، إذا بهـا تفعـل فعل الجهال ، وإذا بها تشتد فى قسوتها على رسول الله ﷺ ، حتى أصبح الغدر هـو الأغلب على فعالهـا ، فآثر رسول الله أن يعتكف فى داره ، ويتجنب سفاهات القرشيين ،وظل عـلى تلـك الحـال أيامـا ، ولما علم عمه عبد العزى بما صار إليه ابن أخيه ، أخذته الحمية لصلبه فجاءه ، وقال له :

ـ يا محمد امض لما أردت ، وما كنت تصنع فى حيـاة عبـد المطلـب ، فـواللات لا يصـلون إليـك حتـى أموت .

.. ثم أعلن ذلك على قريش فى مجالسها ، فأقبلوا عليه وجلون ، قالوا :

ـ قلا أبو لهب دين عبد المطلب .

قال أبو لهب :

ـ ما فارقت دين عبد المطلب ، ولكنى أمنع عدوانكم عن ابن أخى .

قالوا منافقين :

ـ لقد أحسنت وأجملت ، ووصلت الرحم .

.. وما قالوا ما قالوا إلا ممالأة لعبد العزى ، فلو انضم آل عبد المطلب لـدين ابنهـم ، لتفـرق ريحهـم، أمـا أن تشتد الحمية بهم من أجل غيرتهم على أرحامهم ، فهـو أمـر يمكـن علاجـه مـع الأيـام ، وانفـض القـوم ، والله أعلم بما يضمرون .

وعاد رسول الله ﷺ للخروج للدعوة بين الوافدين إلى قريش من جديد ، لكن أنصار إبليس أمرضهم ما يرون ، فمكروا مكرا كبارا ، ثم ذهبوا إلى عمه أبى لهب ، وتبسموا شامتين ، ثم خرجت كلماتهم متسائلة ، والسم يتناثر من أطراف ألسنتهم :

ـ هل سمعت ما يقول ابن أخيك ، عن مصير من ماتوا من الآباء ، ومنهم عبد المطلب ؟! .

قال أبو لهب :

ـ لا .

تناثر السم يدمر كل ما هو طيب ، ويفسد استمرارية الود ، قالوا :

ـ يقول إنه مثله مثل من ماتوا على ملته .

قال أبو لهب :

ـ وماذا يقول عن مصيرهم ؟! .

عاد الخبث القاتل يغلف كلماتهم بالسم ، وقالوا :

ـ هو ابن أخيك ، فاذهب إليه واسأله .

.. وجاءه رد السماء على لسان لا ينطق عن الهوى ، ولا يكذب ، ولا يمالئ ، بل هى قولة الحق أجابه بها محمد ﷺ ردا على سؤاله :

ـ من مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار .

اشتعل أبو لهب وصار نارا مدمرة تعلن عداءها ، قال :

ـ والله ما أنا لك منذ اللحظة إلا عدو أبدا ، وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار .

كنت يا حبيبى تعلم أن هذا هو رد الفعل لقولك .

فأنت تعرف أن عمك عبد العزى عبد لما عبد الآباء .

.. ولكنك لم تحد عن الحق، وكيف تحيد، وتعمل عمل أهل الدنيا فتمكر، وترائى طلبا لعون عمك ونصرته ؟! .

.. وأنت تعلم أن النصر من عند الله ، وأن الأمر جميعه بيد الله سبحانه وتعالى ، وليس لعبد العزى ، ولا حتى لقريش وأهل الدنيا لو اجتمعوا ، فإنهم لا يضروك بشىء ، إلا ما كتب الله تعالى لك .

.. واهتبلت قريش الموقف اهتبالا ، فعادت إلى سابق عهدها مع رسول الله وصحبه من جور واعتداء .

ـ 5 ـ

.. مع مرور الأيام ، وجد رسول الله ﷺ أنه لا خير فى قريش .

وفى ليلة شديدة الظلمة ، فهى فى مثل ظلم قريش ، وفى غفلة من عيون أهلها ، تسلل رسول الله ﷺخارجا من مكة ومعه زيد بن حارثة قاصدا : الطائف ، عسى إن لم تكن قريته الأولى قد استجابت لدعوته ، أن تستجيب القرية الثانية ، ولعل الأنسباء يكونون ، أكثر حدبا عليه من الأصلاب .

.. كان ﷺ كلما مر فى طريقه بقبيلة من القبائل يميل إليها ، ويدعو أهلها إلى الإسلام ، فلعل الله هاديهم ، فلم يجد منهم إلا النفور والصد عن دين الله ، ولم يحبط موقفهم أمله فى أن يتحقق وعد الله ، وأن يدخل أهل المقصد من الرحلة الإسلام .

كانت الطائف كمكة فى تكوينها القبلى ، وكان كبراؤها اخوة ثلاثة هم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب : أبناء عمرو بن نفيل الثقفى .

وبعد أن قطع رسول الله ﷺ أكثر من تسعين ألفا من الأمتار سائرا على قدميه ، وصل إلى الطائف ، واتجه إلى حيث مجلس الاخوة ، وعرض عليهم أن ينصروه على قومه ، بدخولهم فى دين الله ، فقال أولهم :

ـ إننى لأمزق ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك .

وقال الثانى متعاظما :

ـ أما وجد الله أحدا غيرك يرسله ؟ .

وقال الثالث وكان مؤمنا :

ـ والله لا أكلمك أبدا ، إن كنت رسولا لأنت أعظم من أن أرد عليك الكلام ، ولـئن كنـت تكـذب عـلى الله فما ينبغى لى أن أكلمك .

.. ثم أغـروا غلمانهم وحرضوهم على أن يقذفوا رسول الله بالحجارة ، وهــو يأخـذ طريقــه خارجـا من قريتهم ، فلم يراعوا أبسط الأعراف فى معاملة الضيف ، فما بالكم وقد كان رسول الله ﷺ مسـتجيرا بهم ؟ .

خرج الصبية إلى الطرقات يتصايحون ، ويلاحقـون خطـا رسـول اللـه ﷺ ، ويقـذفون قدميـه بالحصىـ والأحـجار، فما من مرة رفـع قدما أو حطهـا ، إلا ورميت بحجر ، وزيد يذب الصبية فلا يستجيبون ، ولا يرتدعون ، فينفطر قلبه خوفـا على الحبيب ، ولا يجد من فداء غـير أن يتلقـى عنـه الحجـارة بجسـمه ، وإن كانت الروح منه وثابة سبـاقة تبحث عن مزيد من القدرة على الحمايـة ، فلـم يشـعر زيـد برأسـه التى شجت ، فلقد كان ألم نفسه على الحبيب الذى تخضبت قدماه بالـدم مـما نـالهما مـن أذى : أشـد وأعظم من جرح رأسه .

وهكذا كان النسباء أدنى أخلاقا من قريش ، فلقد تـدنوا فى سـلوكهم بعـد أن نـزغ الشـيطان فى قلـوبهم ،وأشعل نيران الغيرة والكراهية فى أبدانهم : فكيف لا تكون النبوة فيهم هم ، وتكون فى يتيم من مكة، ليس له من الملك، أو السلطان شئ ؟ .

.. وفعلهم هذا لا يثير فينا عجبا أو استنكارا ، فهو سلوك من استعبدهم إبليس ؟! .

.. فكيف لا يكون فعلهم فعلا قبيحا كمصدره ؟!!! .

.. وكيف لا يناصب إبليس محمدا ﷺ العداوة ، وقد استشاط غضبا وكرها ، بعـد أن رأى مـا رأى مـن مثالية سلـوك من دخلوا فى دين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وبعد أن تأكد من اعتصامهم بالله ، وامتناعهم عليه ، وإبليس يرى فيما يحدث خطرا محدقا بسلطانه ، فهذه الدعوة إيـذان بـزوال ملكـه ، وهلاك قومه ، وفشله فيما عاهد الله عليه من إفساد للبشر ؟ .

ـ 6 ـ

.. بعدت الخطى بمحمد وزيد ، عن سبيل الشيطان وأنصاره ، وهدأ هوس الصبية ، وتباعد خطـرهم ، وجلس رسول الله إلى سور بستان به كرمة ، ثم خر ساجدا لله فى خشوع ، ثـم اسـتقام ورفـع يديـه إلى صاحب الأمر فى ضراعة وقنوت ، وانساب الـدمع عـلى الخـدين حبـات لؤلـؤ ، وخـرج صـوته ﷺ خريـر جدول ماء طهور ، قائـلا :

ـ اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الـراحمين ، أنـت رب المستضعفين ، وأنـت ربى ، إلى من تكلنى : إلى عبد يتجهمنى ، أم إلى عـدو ملكتـه أمـرى ؟.. إن لم يكـن بك على غضب فلا أبالى ، ولكـن عافيتـك أوسـع لى ، أعـوذ بنـور وجهـك الـذى أشرقـت لــه الظلـمات ، وصلح عليه أمـر الدنيا والآخـرة ، من أن ينزل بى غضـبك ، أو يحــل عـلى سـخطك ، لـك العتبـى حتـى ترضى ، ولا حول ولا قـوة إلا بك .

وتتلقف أذنا زيد صوت الخرير ، فيدهش غاية الدهشة ، ويعجب أشد العجب ، فلقد كان ينتظر من الحبيب أن يدعو ربه ليهـلك من اعتدوا عليه ، وآذوه ، وقلوه ؛ ولكنك هكذا دائما يا حبيبى يـا محمـد ..

: تعفو وتصفح ، ولا تملك أن تقسو أو تكره .

ولماذا العجب ، وأنت من قال فيك الله تعالى :

ـ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) سورة الأنبياء

فاض بزيد وجد المحب على المحبوب ، فنفسه تشعر بالعجز عن القصاص ممن أساء واعتدى ، كما وأنه لا يملك الافتداء ، فكيف ينوب بدنه عن بدن الحبيب ، ولن يتحقق هذا إلا بالامتزاج ، وهذا محال ؟.

.. ويبتعد زيد ببدنه عن محمد ﷺ خطوات ، وكأنه يضن على جسده العاجز أن يكون مجاورا لجسد الحبيب ، طالما هو ليس أهل لهذا الحب ؟!.

ويتكوم زيد على نفسه ، وينتفض جسده من شدة البكاء ، وهو يكاد ينفرط حسرات على ضعفه وعجزه ، وغيظا من حال بشر قساة يصبون قسوتهم على من جاءهم بالرحمة من عند الله ، ويبذل عمره لكى تشملهم ليسعدوا ويفلحوا !! .

ويفد جبريل على النبى ﷺ يبلغه أن ربه قد سمع شكواه ، وأن الله قد أمر ملك الجبال أن يكون منفذا لما يأمره به ، ويظهر ملك الجبال طاعته ، قائلا :

ـ إذا شئت يا رسول الله أطبقت الجبال عليهم فتمحوهم ، وتمحو أثارهم من على وجه الأرض .

ولكن الحبيب يرتعد من هول ما سيصيب القوم ، فيقول فى رجاء :

ـ كلا ، لا تفعل .

.. ثم يتجه فى ضراعة إلى الله تعالى ، قائلا :

ـ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، فلعلك بقدرتك يا رب مخرج من أصلابهم مسلمين .

وتلمح عين زيد غلاما يقبل حاملا بين يديه شيئا لا تبين تفاصيله ، فتتحفز حواسه للدفاع عن الحبيب ، وحين يقترب الغلام تتضح الرؤية ، ويبين ما يحمله ، فإذا به طبق عليه عنقود عنب ، أرسله صاحبى البستان الذين جلسا إلى حائطه ، فقد رق قلباهما لما رأياه قد حاق بالنبى ، وينحنى الغلام ، ويضع الطبق بين يدى الحبيب ، فيمد محمد يده فيتناول بين أصابعه حبات قليلات من العنب ، ثم يعطى العنقود لزيد ، فيتناوله منه راغبا عنه ، وعيناه ترقبان ما سيفعله الحبيب .

يرفع الحبيب ﷺ حبات العنب إلى فمه ، ويقول :

ـ بسم الله .

ثم يضع الحبات فى فمه ، ويتساءل الغلام دهشا مما سمع :

ـ والله هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد !!.

ويسأله الحبيب ﷺ :

ـ ما اسم الغلام ، ومن أى بلد ، وما دينك ؟ .

قال الغلام :

ـ اسمى عداس ، ومن نينوى بالشام ، وأما دينى فالنصرانية .

قال الحبيب ﷺ :

ـ أنت من بلد الصالح " يونس بن متى " .

تساءل الغلام فى دهشة :

ـ وماذا تعرف عن يونس ؟! .

قال الحبيب ﷺ :

ـ هو أخى فأنا نبى مثله ، بعثنى الله داعيا إلى الإسلام .

قال الغلام فى مودة وهو يجلس متقربا إلى رسول الله :

ـ هلا أسمعتنى بعضا مما تدعو الناس إليه ؟ .

.. أسمعه النبى ﷺ بعضا من القرآن ، وأعلمه مبادئ الإسلام ، وحين انتهى من حديثه ، انكب الغلام يقبل رأس النبى ويديه فى خشوع ، وحين رأى صاحبا البستان ما فعل غلامهما ، أخذتهما الدهشة ، وانتظرا عودته إليهما فى ترقب ، وكلما مرت بهما الدقائق ، ازدادا قلقا ، فما إن أقبل ، حتى بادراه بالسؤال عن سبب ذاك التبجيل الذى أبداه لغريب كان الصبية يكنونه بالمجنون ، ويرمونه بالحجارة ، قال عداس فى عجب :

.. ثم أضاف مؤكدا فى ثقة :
ـ لقد قال لى كلاما لا يعرفه إلا نبى .
فأصابت الرجلين الرعدة من قوله ، وأخذتهما الغيرة مما قال ، فإنه لشىء كريه إلى نفسيهما ، أن يكون هذا الإجتباء من الله ، لغريب بسيط المظهر ، جوال بين البلاد مما يشى بأنه لا مال عنده ، ولا سلطان ؛ قالا ينصحانه فى ترهيب وترغيب:
ـ ويلك يا عداس ، لا تخدعك كلماته ، فدينك أحسن من دينه .
.. ولكن عداس لم يعرهما التفاتا ، ولا رد على كلامهما ، فإن ما كان فيه من نعمة اللحظة الإيمانية ، أسمى بكثير مما كانا يدعيان كذبا ، ويتطاولان به جهلا .

ـ 7 ـ

.. انصرف رسول الله ﷺ عائدا إلى قريته يتبعه زيد ، وقد أطبق الظلام على الطريق ، وفى أحد الأودية فرش رسول الله بردته واتجه إلى الله تعالى يصلى ، ويرتل القرآن ترتيلا ، فإذا بصوت نشيج وعويل شديدين يسمعان فى ترديد قوى بين جنبات الوادى ، وثار العجب بزيد مما يسمع ، ولكنه لم ينبث بكلمة ، فقد أخذته رعدة شديدة .
وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ من عبادته ، جاءه جبريل وتلا عليه من سورة الأحقاف :
وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (32)
ولما أخبر النبى زيدا بما جاءه من قرآن ، عجب زيد غاية العجب : أن يكون هذا هو تأثير القرآن على نفر من الجن ، ولا يحدث نفس الأثر عند الإنس .
: ألا ما أبأسك ، وما أتعسك يا أيها الإنسان .
.. حين أضاءت الأرض بنور ربها .
كان الحبيب ﷺ قد أصبح على مشارف مكة ، وتحت سفح جبل حراء توقف ، فى نفس الموضع الذى كان يصعد منه إلى الغار متعبدا ، وقانتا يطلب العلم من الله ؛ فما كان مستطيعا دخول قريته إلا مستجيرا بحمى أحد كبرائها ، بعد أن قلاه عمه أبو لهب .
أرسل النبى ﷺ زيدا إلى الأخنس بن شريق مستجيرا ، وجاءه الرد مؤدبا مؤده أن الأخنس مستجير بأهل القرية فهو ليس قرشيا ، بل هو وافد علي مكة مهاجرا من ثقيف ، والمستجير لا يجير .
.. فأرسله إلى سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، فرده معتذرا عن إجابة الرسول إلى طلبه .
قال النبى ﷺ :
ـ يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر نبيه .
.. ثم أرسله إلى مطعم بن عدى ، فأقبل إلى المسجد فى أبنائه وقد تسلحوا ، وقام مطعم على راحلته فنادى :
ـ يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا فلا يؤذه أحد .
ودخل النبى مكة فى جوار مطعم بن عدى ، فطاف بالكعبة ، وأولاد مطعم يتحلقون بها مظهرين تأهبهم للقتال ، وحين أقبل أبو سفيان ورأى ما يحدث ، أقبل على مطعم قلقا من أن يكون قد دخل فى دين محمد ، وسأله :
ـ أمجير أم تابع ؟! .
قال مطعم :
ـ بل مجير .

واطمأنت نفس أبى سفيان ، وقال :

ـ إذن لا نرد لك جوارا ، وقد أجرنا من أجرت .

وأتم رسول الله ﷺ طوافه ، وعاد مع زيد إلى داره .

ـ 8 ـ

رأى رسول الله ﷺ أن يوجه جهده إلى دعوة من يفدون إلى مكة حاجين أو للتجارة ، فيعرض عليهم أمره ، وانتبه كفار قريش إلى ما يسلك رسول الله ، فكانوا لا يكفون عن ترقب الوفود على أبواب مكة ، ويحذروهم من الدين الجديد ، ويتفننون فى إطلاق النعوت الكاذبة على النبى حتى ينفروهم منه .

وكان عمه أبو لهب أشدهم مجافاة لابن أخيه ، فلقد ظل يلاحقه أينما ذهب بين الوافدين : يسئ إليه ، ويتهمه بأنه مجنون لا يدرى ماذا يقول ، وأنه يفرق بين الرجل وزوجه ، وبين الأب وابنه ، ويفسد على قومه حياتهم ، لذلك كثيرا ما حاجت الوفود النبى بكلام عمه قائلين :

ـ قوم الرجل أعلم به ، ولا نرى أن يصلحنا رجل قد أفسد قومه .

وحين وفد الطفيل بن عمرو الدوسى ، وهو من أنبغ شعراء العرب ، سارع أترابه من القرشيين إلى تحذيره من الاستماع أو الاقتراب من مجلس محمد بالكعبة ، وكان تحذيرهم هو ما حفز نفس الشاعر التواقة إلى الاكتشاف ، لأن تتوثب رغبة فى معرفة الحقيقة ، وتحايل الطفيل على محاولاتهم ، بأن قال لهم يطمئنهم :

ـ آتونى بقطن أضعه فى أذنى حتى لا أسمعه .

.. ثم تحين الفرصة للاقتراب من مجلس النبى فى الحجر ليسمعه ، فأخذ بروعة ما سمع من القرآن ، ثم تحايل المرة بعد المرة للانفراد بالنبى بعيدا عن عيون قريش ، حتى شاء الله أن يشرح قلبه بالإسلام ، فجلس إلى النبى ، وتلا النبى عليه القرآن ، فما قام من مجلسه إلا وقد أسلم ، بل تاقت نفسه الطيبة لأن يسلم قومه ، فقال للرسول راجيا :

ـ يا رسول الله إن قومى قد غلبهم حب الزنا ، فأدع الله أن يتوب عليهم ويهديهم للإسلام .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ اللهم اهد دوسا .

وغادر الطفيل مكة إلى أهله مسلما ، وما إن استمعت زوجه وسمع أبوه ما حمل معه من قرآن حتى أسلما ، ثم دخل قومه بعد ذلك فى الإسلام .

.. رغم سخافات أبى لهب ، ظل النبى يقصد تجمعات الوافدين ، يدعوهم إلى الله ورسوله ، ويبين لهم ما بعث من أجله موجزا ومبسطا يقول ﷺ :

ـ أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى ، وتمنعونى ، حتى أبين عن ما بعثنى الله به .

فكان يجد من أغلبهم الجفوة ، ويجد من البعض القبول ، ومن البعض الآخر التردد ، مثل ما حدث حين ذهب إلى خيام بنى عامر بن صعصعة ، فلقد عقب بحيرة بن فراس على دعوته قائلا لأهله :

ـ والله إنى لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب .

.. ثم التفت إلى رسول الله ﷺ قائلا :

ـ أرأيت إن نحن تابعناك على رأيك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ .

قال الصادق الأمين :

ـ الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .

قال بحيرة :

ـ أو نهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا ، والله لا حاجة لنا بأمرك .

وحين عادوا إلى ديارهم ، وقصوا ما حدث لشيخهم ، قال آسفا :

يا بنى عامر هل لها من تلاف ، والذى نفسى بيده ما يقولها إلا واحد من ولد إسماعيل ، وإنها الحـق ، فأين كان رأيكم عنه ؟! .

- 9 -

قدم سويد بن صامت من بنى عمرو بن عوف من طيبة ، إلى مكـة معتمرا ، وعرض عليه رسول الله الإسلام ، فقال له :

- فلعل الذى معك ، مثل الذى معى .

قال الرسول ﷺ :

- وما الذى معك ؟ .

قال سويد :

- معى وصايا لقمان .

قال رسول الله ﷺ :

- اعرضها على .

فلما عرضها ، قال رسول الله ﷺ :

- إن هذا لكلام حسن ، معى أفضل منه ، قرآن أنزله الله على هدى ونورا .

وتلا عليه القرآن ، وسويد منصت بكل جوارحه ، فلما انتهى قال سويد :

- والله إن هذا لقول حسن .

ثم عاد سويد إلى قومه بطيبة ، ولكن الخزرج قتلوه ، وإن أهله ليقولون إنه مات على الإسلام .

.. سمع رسول الله ﷺ بمقدم وفد من بنو عبد الأشهل ، وهم من يهـود طيبـة ، يطلبـون الحلـف مـن قريش على قومهم من الخزرج ، فذهب إليهم ، وقال لهم :

- هل لكم إلى خير مما جئتم له ؟ .

قالوا :

- وما ذاك ؟ .

فعرفهم رسول الله ﷺ بدعوته ، ثم تلا عليهم القرآن ، وحين انتهى قال إياس بن معاذ :

- أى قوم ، هذا والله خير مما جئنا له .

وينحنى أبو الحيسر أنس بن رافع ، فيغترف التراب من الأرض ويرمى به وجه إياس قائـلا :

- دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس ، وانصرف عنهم النبى .

ولكن نفس إياس لم تنصرف عن الإسلام ، فلقد ظـل على الإسلام حتى مات فى عامه ذاك .

- 10 -

ولما عرض رسول الله ﷺ أمره فى موسم الحج ، على ثقيف وهم من أهل الطائف وكان معه أبو بكـر وعلى بن أبى طالب ، بدأ أبو بكر ؓ الحديث متسائلا :

- من القوم ؟ .

أجابه محدثهم وكان اسمه مقروف :

- من شيبان بن ثعلبة .

قال أبو بكر ؓ :

- كيف العدد فيكم ؟ .

قال مقروف :

- إنا لنزيد على الألف ، ولن تغلب الألف قلة .

قال :

- وكيف المنعة فيكم ؟ .

قال مقروف :

ـ علينا الجهد ، ولكل قوم طاقة .
قال أبو بكر ﷺ :
ـ وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟.
قال :
ـ إنا لأشد لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح .
ثم استطرد مقروف متسائلا :
ـ لعلك أخو قريش ؟ .
فأشار أبوبكر إلى حيث وقف رسول الله ﷺ وقال :
ـ إن أخا قريش هو ذا .
قال مقروف :
ـ بلغنا أنه يذكر شيئا ، فإلام يدعو ؟ .
فتقدم النبى ﷺ وقال :
ـ أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تأوونى ، وأن تنصرونى ، حتى أبلغ رسالة ربى ، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ،والله هو الغنى الحميد.
قال مقروف :
ـ وإلام يدعو دينك يا أخا قريش ؟ .
وقرأ النبى ﷺ من سورة الأنعام :
قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)
قال مقروف :
ـ ما هذا من كلام أهل الأرض ، وإلام تدعو أيضا ؟ .
فتلا النبى ﷺ من سورة النحل :
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91)
قال مقروف و قد تهلل وجهه :
ـ دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد افترى من كذبك ، وظاهر عليك ، وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .
قال هانئ :
ـ أرى أن ترك ديننا إلى دينك بمجلس جلسته إلينا ، كان قلة نظر فى العواقب ، والزلة مع العجلة ، ووراءنا قوم نكره أن نقرر بدونهم عقدا، ولكن نرجع وننظر، وننتظر، وهذا المثنى بن حارثة شيخنا و صاحب حربنا .
وتحدث المثنى فقال :
ـ لقد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، والجواب ما ذكر هانئ بن قبيصة ، وإن أردت أن نؤويك وننصرك فعلنا ، ولكننا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثا ، ولا نأوى محدثا ، وهذا الأمر الذى تدعونا إليه تكرهه الملوك .
قال رسول الله ﷺ :

ـ ما أسأتم إذ أوضحتم الصدق ،وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع نواحيه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا ويورثكم الله أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، تسبحون الله وتقدسونه .

ثم تلا رسول الله ﷺ من سورة الأحزاب قول الله تعالى :

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47)

وتركهم رسول الله ﷺ على رجاء أن يهديهم الله ، إعمالا لمنهجه الذى ينتهج للدعوة ، ويبين فى قوله ﷺ :

ـ لا أكره أحدا على شئ ، من رضى الذى أدعو إليه فذاك ، ومن كره لم أكرهه ، وإنما أريد منعى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى .

.. كان هذا الاستقبال الطيب من ثقيف حافزا لرسول الله ﷺ على متابعة باقى الوفود بالدعوة ، فتخير جمعا ممن وفدوا من طيبة ، واتجه إليهم ومهد لحديثه سائلا :

ـ من القوم ؟ .

قالوا :

ـ نفر من الخزرج .

قال ﷺ :

ـ موالى اليهود ؟ .

قالوا :

ـ نعم .

قال ﷺ :

ـ أفلا تجلسون حتى أكلمكم ؟ .

قالوا :

ـ بلى .

فدعاهم إلى الله ، و تلا عليهم القرآن ، فلما انتهى قالوا :

ـ لقد توعدنا اليهود بنبى يبعث ، فيقاتلونا به ، فيهزمونا ببركته ويقتلونا تقتيلا ، فلا نجعل أحدا يسبقنا إليك ، ونحن نصدقك ، و نقبل منك دينك ، ولكننا قد تركنا قومنا ، وليس مثلهم قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك ، وسنقدم عليهم حين عودتنا فندعوهم إلى ما أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك .

فلما عادوا إلى طيبة وقد أسلموا ، دعوا قبائلهم إلى الإسلام فأجابوهم إليه ، ولم تبق دار من دور الخزرج ، أو الأوس بطيبة إلا وفيها من دخل الإسلام .

وفى العام التالى وفد إلى مكة إثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج فبايعوا رسول الله ﷺ ، فكانت بيعة العقبة الأولى .

وقد قامت أشراطها على أن : لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصى رسول الله فى معروف .

قال رسول الله ﷺ :

ـ فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله : إن شاء عذبكم ، وإن شاء غفر لكم .

وحين انتهى موسم الحج ، طلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل معهم إلى طيبة ، من يعلمهم ويعلم قومهم أمور دينهم الجديد ، فبعث معهم مصعب بن عمير .

.. وشاء الله أن يدخل الإسلام على يديه كبار قادة الأوس والخزرج .

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

سورة الإسراء

واجتباه ربه

- 1 -

المكان : الكعبة .
الوقت : مساء .
اليوم : الاثنين .
الشهر : رجب .
السنة : الأخيرة قبل الهجرة .

.. صلى محمد ﷺ لربه صلاة العشاء ، ثم استغرق فى العبادة ، والتأمل ..

: ترى فيم تفكر يا حبيبى ؟ .

: أتفكر فى أهل مكة الذين تخلوا عن كل قيمهم ، ووجهوا كل هممهم وكل همتهم إلى مقاتلة الحق ، إلى الحد الذى جعلك لا تجد من بينهم ـ بعد وفاة عمك أبي طالب ـ مجيرا ولا نصيرا ، إلا بعد تعب وأى تعب ، مع أنك صاحب حق ، وصاحب دعوة هى الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟! .

.. ولقد ضل أهل قريتك التى أحببت ، أضلهم إبليس اللعين عن النور والهدى
الذى جاءهم من الله ، وعن كتاب الله المبين .

.. وبات الأقوياء من أهل مكة ومن حولها يطاردونك بالكراهية ، وينبذونك من بينهم ، وأنت يا حبيبى لم تكره أحدا وما كرهت مخلوقا ، فلم تعرف نفسك الطيبة ظلا من كراهية ؛ وقد أعلمك الله أن الأنبياء والرسل على مدى عمر البشرية يواجهون بالكراهية والأذى .

: أم تراك قد أخذك التفكير إلى ما يلاقى أصحابك من تعذيب وظلم وهجرة ، حتى لتشق عليهم الحياة ، فتصبح عذاب وابتلاء ؟ .

: ترى أهذا ما كان يستغرق تفكيرك يا حبيبى ؟ .

.. وإنك فى النهاية تخلص إلى عقيدتك الراسخة رسوخ الجبال ، من كون كل شدة تهون يا رب ، إذا لم يكن بك سخط على ، أو غضب منى ، لأنك يا حبيبى من الصابرين الذين قال فيهم رب العزة :
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) سورة البقرة

.. وها هو ذا رسول الله ﷺ قد دخل فى حال الاستغراق، فارتقى ليعيش فى نور الله، ويصير فيضا من النور، حتى لا يدرى عن كيانه البشرى شيئا : أهو دم ولحم وعظم ، أم هو روح تهيم فى ملكوت ربها ؟ .

يقول ﷺ :

ـ بينما أنا فى الحطيم مضطجعا إذ آتاني آت ، فشق ما بين هذه إلى هذه ، وأشار إلى مكان صدره وسرته : فاستخرج قلبى .

.. ثم جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ، ومعه دابة أبيض لونها ، هى فوق الحمار وهى دون البغل ، فهى وسط بين هذا وذاك ، ودعا محمدا ﷺ لأن ينهض ، فنهض ، ثم دعاه لأن يركب البراق ، ففعل ، وانطلقت به الدابة وخطوها عجب عجاب ، فالأرض تطوى لها طيا ، وخطوتها تصل لأبعد ما يدرك البصر ، فكأنها هى البرق لا البراق .

: فسبحان الخلاق العظيم . .

: خلق ما خلق .

: ويخلق مالا تعلمون .

وعند أرض بها نخل توقف البراق وقال له جبريل :

ـ انزل فصل .

وترجل رسول الله ، وصلى ركعتين ، ثم عاد فركب الدابة، وسأله جبريل :

ـ أتدرى بأى أرض صليت ؟ .

قال :

ـ لا .

قال جبريل :

ـ لقد صليت بطيبة و إليها المهجر .

وانطلق البراق ، وما هى إلا لحظات حتى توقف ، وأعاد جبريل على رسول الله ، طلب النزول والصلاة ، ونزل النبى فصلى ، ثم أخبره جبريل أنه صلى بمدين مهبط موسى .

وتكرر الأمر للمرة الثالثة ، ونزل النبى عن البراق وصلى ، ثم أخبر بأنه صلى بطور سيناء حيث كلم الله نبيه موسى تكليما .

.. وفى المرة الرابعة صلى ببيت لحم ، وهى أرض ذات قصور ، حيث ولد نبى الله عيسى عليه السلام .

ـ 2 ـ

.. وبينما البراق يشق الأرض شقا ، إذ بعفريت من الجن يلاحق النبى بشعلة فى يده يريد أن يؤذيه ، ولقد رأى النبى ذلك ، فالتفت يطلب العون من مبعوث السماء ، فقال له جبريل :

ـ ألا أعلمك كلمات تقولهن ، فإذا قلتهن طفئت شعلته .

قال النبى ﷺ :

ـ نعم يا آخى يا جبريل .

قال جبريل عليه السلام :

ـ قل ، أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما رزأ فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن .

فلما قالها رسول الله ﷺ ،انكب العفريت على وجهه ، وانطفأت شعلته .

.. فسبحان الله المعيذ لمن يستعيذ .

ومر البراق بناس يزرعون ويحصدون فور زرعهم، وكلما حصدوا عاد الزرع كما كان، فسأل جبريل عنهم، فقال :

ـ هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شئ فالله يخلفه .

ومست أنف النبى ريح طيبة كأنها المسك ، فسأل جبريل فقال :

ـ هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها ، كانت تمشط شعر سيدتها فوقع المشط من يدها فقالت : بسم الله ، تعس فرعون .

فسألتها ابنة فرعون : أولك رب غير أبي ؟! .
فقالت لها : نعم ، ربي وربك هو الله .
وكانت المرأة متزوجة ، ولها ابنان ، فأرسل فرعون يستدعيها وزوجها ، وأخذ يساومهما للرجوع عن دينهما فأبيا ، فقال فرعون : آني قاتلكما . فرجته المرأة أن يجمع عظامها وعظام زوجها ويدفنهما معا ، فقال فرعون : سوف أجيبك إلى طلبك .
وحين التنفيذ أوقدت النار وحضرت المرأة تحمل رضيعها ، وإلى جانبها يسير ابنها وزوجها ، وألقى الزوج فى النار ، ولما جاء دور الأم نظرت إلى وليدها وتقاعست حنانا عليه ، فإذا بالوليد ينطقه الله فيقول لأمه :
- يا أمه قعى ولا تتقاعسى ، فإنك على الحق .

- 3 -

.. واستمرت الآيات تترى ..
ليريه ربه من آياته ..
ويعلمه ما لم يكن يعلم .
فمر بأناس تقطع رؤوسهم ، وكلما قطعت عادت كما كانت ، وأعلمه جبريل أن هؤلاء هم الذين تتشاغل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة .
ثم أتى على أناس على إقبالهم وعلى أدبارهم رقاع ، وقال عنهم جبريل إنهم الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئا .
ومن بعدهم مر البراق بأناس وضعت أمامهم قدور بها لحم طيب ناضج ، وأخرى
بها لحم نيئ خبيث ، فيتركون اللحم الطيب ، ويأكلون من اللحم الخبيث ، فسأل رسول الله :
- ما هذا يا جبريل ؟ .
قال جبريل :
- هؤلاء أناس من أمتك تكون عندهم المرأة حلالا طيبا ، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا ، فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى الصباح .
ثم مضى هنيهة، فإذا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، فيها الحياة ترى من خارجها ، كلما نهض أحدهم خر، فيقول : اللهم لا تقم الساعة . وهم على سابلة آل فرعون ، فتجئ السابلة فتطؤهم ، فيضجون إلى الله تعالى .
فقال رسول الله :
- يا جبريل من هؤلاء ؟ .
قال جبريل :
- هؤلاء من أمتك " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ ." سورة البقرة
.. وبعد هنيهة إذا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل ، فتفتح أفواههم ويلقمون من صخر جهنم ، ثم يخرج من سافلهم ، وسمعهم يضجون إلى الله تعالى ، وسأل رسول الله .
فقال جبريل :
- هؤلاء " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10) سورة النساء
ومن بعدهم مر على نساء معلقات بأثدائهن ، ونساء منكسات بأرجلهن ، وسمعهن يضججن إلى الله تعالى ، وأعلمه جبريل بأنهن اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن .
.. ومضى هنيهة فإذا بقوم يقطع اللحم من جنوبهم فيلقمونه ، ويقال للواحد منهم :
- كل كما كنت تأكل من لحم أخيك .
فقال :

ـ من هؤلاء يا جبريل .
قال :
ـ هؤلاء الهمازون اللمازون .
ثم أتى على خشبة بالطريق لا يمر بها ثوب ولا شئ إلا خرقته ، فلما سأل ، قال له جبريل :
ـ هؤلاء مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، وتلا : " وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ـ سورة الأعراف
ورأى رسول الله ، رجلا يسبح فى نهر من الدم ، ويلقم الحجارة ، وأعلمه جبريل بأن هذا هو آكل الربا .
ثم رأى رجلا قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها ، ولما سأل ، قيل : إن هذا الرجل عنده أمانات الناس لا يستطيع أداءها ، ويريد أن يزيد عليها .
ومرا بعدها على قوم تقرض ألسنتهم بمقارض من حديد ، وكلما قرضت عادت ، قال رسول الله :
ـ من هؤلاء ؟ .
قال جبريل :
ـ هم خطباء الفتنة من أمتك يقولون مالا يفعلون .
ثم أتيا على قوم لهم أظافر من نحاس ، يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، وقال جبريل :
ـ هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم .
وأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، ثم أخذ الثور يريد العودة من حيث أتى فلا يستطيع ، وقال جبريل عنه :
ـ انه الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ويريد أن يرجع عنها، فلا يستطيع ردها .

ـ 4 ـ

وسمع صوت آت من واد تفوح منه ريح طيبة باردة أحسن من ريح المسك ، فسأل رسول الله ﷺ ، فقال جبريل :
ـ هذا صوت الجنة تقول .. يا رب إيتنى بما وعدتنى ، فقد كثرت غرفى وإستبرقى وحريرى وسندسى وعبقرى ، ولؤلئى ومرجانى ، وفضتى وذهبى ، وأكوابى وصحافى ، وأباريقى ومراكبى ، وعسلى ومائى ، ولبنى وخمرى .
قال نعالى : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحا ، ولم يشرك بى ، ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته ، ومن أقرضنى جزيته ، ومن توكل على كفيته ، أنى أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن
الخالقين . قالت الجنة :
قد رضيت .
وأتى على واد ثان فسمع صوتا منكرا ، ووجد ريحا منتنة ، فسأل رسول الله :
ـ ما هذا يا جبريل ؟ ! .
قال جبريل :
ـ هذا صوت جهنم ، تقول : يا رب إيتنى بما وعدتنى ، فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى ، وحميمى وضريعى وحمامى وغساقى وعذابى ، وقد بعد قعرى واشتد حرى ، فآتنى بما وعدتنى . فيقول الله : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ؛ قالت النار : قد رضيت .

- 5 -

رأى النبى ﷺ ، الدجال أقمر هجان ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى ، وكأن شعر رأسه أغصان شجرة ، ثم رأى عامدا أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة ، فلما سأل :

- ما تحملون ؟ .

قالوا :

- عمود الإسلام ، أمرنا أن نضعه بالشام .

وبينما البراق يسير دعا النبى داع عن يمينه يقول :

- يا محمد ، انظرنى أسألك .

فلم يجبه رسول الله ﷺ ، فلما سأل :

- من هذا يا آخى يا جبريل ؟ .

أجاب جبريل عليه السلام :

- هذا داعى اليهود ، أما انك لو أجبته لتهودت أمتك .

ثم ما لبث أن دعاه داع عن شماله :

- يا محمد ، انظرنى أسألك .

فلم يجبه رسول الله ﷺ ، ثم سأل :

- من هذا يا جبريل ؟ .

قال جبريل :

- أنه داعى النصارى ، ولو أجبته لتنصرت أمتك .

.. ثم إذ بامرأة حاسرة عن ذراعها ، وعليها من كل زينة خلقها الله سبحانه وتعالى ، فقالت :

- يا محمد ، انظرنى أسألك .

فلم يجبها ، ثم قال :

- ومن هذه يا جبريل ؟! .

قال جبريل :

- تلك الدنيا ، أما إنك لو أجبتها ،لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة .

وبعدها ظهر رجل متنح عن الطريق يدعوه :

- هلم يا محمد .

فلم يلتفت إليه وتقدم فى طريقه ، وأعلمه جبريل أن ذاك الرجل هو إبليس عدو الله أرادك أن تميل إليه .

- 6 -

.. ولما وصلا إلى بيت المقدس دخلاه من بابه اليمانى ، وإذا عن يمين المسجد الأقصى ، وعن يساره نوران ساطعان ، فقال رسول الله متسائلا :

- ما هذان النوران يا جبريل ؟ .

قال جبريل :

- أما الذى عن يمينك فإنه محراب أخيك داود ، وأما الذى عن يسارك فعلى قبر أختك مريم .

.. ودخل رسول الله المسجد من باب تميل منه الشمس والقمر ، وعند الصخرة سأل جبريل محمدا ﷺ :

- هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ .

قال رسول الله :

ـ نعم .

فأشار جبريل إلى جانب من الصخرة ، وقال :

ـ فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن ، وهن جلوس عن يسار الصخرة .

فسلم رسول الله عليهن ، ثم سألهن عن كينونتهن ، فقلن :

ـ خيرات حسان ، نساء رجال أبرار ، نقوا فلم يدرنوا وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا .

ثم صلى النبى فى المسجد منفردا ركعتين ، وصلى جبريل منفردا ركعتين ، ولم يلبثا إلا قليلا ، ثم توافد ناس كثيرون ، ثم أذن مؤذن، فتدافعوا حتى قدموا محمدا ليصلى بهم ، فصلى بهم، فلما ختمت الصلاة، قال جبريل :

ـ أعلمت من صلي خلفك ؟ .

قال رسول الله ﷺ :

ـ لا .

قال جبريل :

ـ كل نبى بعثه الله .

ثم بدأ الأنبياء فى الثناء على ربهم ، فقال إبراهيم عليه السلام :

ـ الحمد لله الذى اتخذنى خليلا، وأعطانى ملكا عظيما ، وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى ، وأنقذنى من النار ، وجعلها على بردا وسلاما .

.. وأثنى موسى عليه السلام على ربه ، فقال :

ـ الحمد لله الذى كلمنى تكليما ، وجعل هلاك فرعون ، ونجاة بنى إسرائيل على يدى ، وجعل من أمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون .

.. ثم أثنى داود عليه السلام على ربه ، فقال :

ـ الحمد لله الذى جعل لى ملكا عظيما ، وعلمنى الزبور ، وألان لى الحديد ، وسخر لى الجبال يسبحن والطير ، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب .

.. وأثنى سليمان عليه السلام على ربه ، فقال :

ـ الحمد لله الذى سخر لى الرياح ، وسخر لى الشياطين والإنس ، يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، وعلمنى منطق الطير ، وآتانى من كل شئ فضلا ، وسخر لى جنود الشياطين ، والإنس والطير ، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعدى ، وجعل ملكى ملكا طيبا ليس فيه حساب ولا عقاب .

.. وأثنى عيسى بن مريم عليه السلام على ربه ، وقال :

ـ الحمد لله الذى جعلنى كلمته ، وجعل مثلى مثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، ورفعنى وطهرنى ، وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ولم يكن للشيطان علينا سبيل .

.. فقال محمد ﷺ :

ـ كلكم أثنى على ربه ، و إنى مثن على ربى .. الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شئ ، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ،وجعل أمتى وسطا ، وجعل أمتى هم الأولون والآخرون ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحا وخاتما .

فقال إبراهيم عليه السلام :

ـ بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وسلم .

.. وحين اجتمعوا على حديث تذاكروا أمر الساعة ، فقال إبراهيم ﷺ :
ـ لا علم لى بها .
وقال موسى ﷺ ، مثل ما قال إبراهيم ﷺ ، ثم قال عيسى ﷺ :
ـ أما وجبتها فلا يعلمها إلا الله ، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج ، وأنى خارج ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، فيهلكه الله تعالى ومن معه ، حتى أن الحجر ليقول : يا مسلم ، إن تحتى كافرا فتعال فاقتله ، فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيطئون البلاد ، لا يأتون على شىء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ؛ ثم يرجع الناس فيشكونهم إلى ، فأدعو الله تعالى عليهم ، فيهلكهم ويميتهم حتى تحوى الأرض من ريحهم ، فينزل الله المطر ، فيجرف أجسادهم إلى البحر ؛ ففيما عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفاجئهم بولادتها ليلا أو نهارا .

ـ 7 ـ

.. ثم أتى بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم إلى جنة الفردوس : منضد باللؤلؤ ، له مرقاة من ذهب ، ومرقاة من فضة ، عن يمينه ملائكة ، وعن يساره ملائكة ، فصعد رسول الله وجبريل حتى انتهيا إلى باب الحفظة ، وهو من أبواب السماء الدنيا فاستفتح جبريل ، قيل :
ـ من هذا ؟ .
قال :
ـ جبريل .
قيل :
ـ ومن معك ؟ .
قال :
ـ محمد .
قيل :
ـ وقد أرسل إليه ؟ .
قال :
ـ نعم .
قيل :
ـ مرحبا به، ولنعم المجىء جاء .
فلما خلصا، فإذا فيها آدم ﷺ كهيأته يوم خلقه الله، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول : روح طيبة، ونفس طيبة، اجعلوها فى عليين؛ ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول : روح خبيثة، ونفس خبيثة، اجعلوها فى سجين .
وكان عن يمينه أسوده وباب تخرج منه ريح طيبة، وعن شماله أسوده وباب تخرج منه ريح خبيثة؛ فإذا نظر عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر عن شماله حزن وبكى .
فسلم عليه رسول الله ﷺ ، فرد عليه السلام ، ثم قال :
ـ مرحبا بالابن الصالح، وبالنبى الصالح .
فقال رسول الله :
ـ من هذا يا جبريل، وما هذه الأسودة التى عن يمينه، والتى عن يساره ؟ .
قال جبريل :

ـ هذا أبوك آدم، وهذه الأسودة نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، وأهل الشمال منهم أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة، إذا نظر من يدخله من بنيه ضحك واستبشر، والباب الذى عن شماله باب جهنم، إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن .

ثم صعدا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فسأل عمن معه فأخبرهم، فرحب به الحفظة، بمثل ترحيب من قبلهم، وفتح لهما، فلما خلصا، فإذا بابنى الخالة : عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، عليهما السلام، شبيه أحدهما بصاحبه : ثيابهما وشعرهما، ومعهما نفر من قومهما .

فسلم عليهما رسول الله ، فردا السلام، ثم قالا :

ـ مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

.. ودعوا له بالخير .

ثم صعدا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، وكان مثل ما حدث عند الاستفتاح فى السماءين، ولما خلصا، فإذا بيوسف عليه السلام ومعه نفر من قومه، فسلم عليه فرد السلام، ثم قال بمثل ما قال عيسى ، ودعا بمثل ما دعا .

وفى السماء الرابعة التقى بإدريس عليه السلام ، وقد رفعه الله مكانا عليا، فسلم رسول الله عليه، ورد عليه سلامه، ثم دعا له .

وفى السماء الخامسة التقى بهارون بن عمران عليه السلام ، وحوله قوم من بنى إسرائيل، وسلم عليه رسول الله، ورد عليه بمثل سابقه .

ثم صعدا إلى السماء السادسة ..

فلما خلصا فإذا بموسى بن عمران عليه السلام ، رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة، كثير الشعر لو كان عليه قميصان لنفد الشعر دونهما، فسلم عليه رسول الله، فرد عليه السلام ثم رحب به ودعا له، وقال :

ـ يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله منى .

فلما جاوزه النبى بكى موسى، فقيل له :

ـ ما يبكيك ؟ .

قال :

ـ يا ربى هذا الغلام الذى بعث بعدى، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتى .

ثم جعل رسول الله يمر، والنبيون معهم الرهط ..

والنبى والنبيون معهم القوم ..

والنبى والنبيون ليس معهم أحد .

.. ثم مر رسول الله بواد عظيم، قد سد الأفق من هذا الجانب، ومن ذا الجانب، فقيل له : هؤلاء أمتك ، يدخل منها الجنة سبعون ألفا بغير حساب .

ـ 8 ـ

فلما انتهيا إلى السماء السابعة رأى فوقه رعدا وبرقا وصواعق، فاستفتح جبريل، ففتح له بعد أن سأل عمن معه، وسمع النبى ﷺ تسبيحا فى السماوات العلا، مع تسبيح كثير يتردد من أصل الموجودات قائلة :

ـ سبحت السماوات من ذى المهابة مشفقات : " سبحان العلى الأعلى ، سبحانه وتعالى " .

ولما خلصا، إذا بإبراهيم عليه السلام جالس عند باب الجنة على كرسى مسندا ظهره إلى البيت المعمور، ومعه نفر من قومه، وحياه رسول الله .

فقال إبراهيم :

ـ مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح .
ثم قال لرسول الله :
ـ مر أمتك ، فليكثروا من غراس الجنة فإن تربتها طيبة، وأرضها واسعة .
فسأله رسول الله :
ـ وما غرس الجنة ؟ .
قال أبو الأنبياء إبراهيم :
ـ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والله أكبر .
ولحظ رسول الله ﷺ ، أن الناس الجلوس حول إبراهيم عليه السلام بعضهم بيض الوجوه مثل القراطيس لا يشوب لون وجوههم شئ، وبعضهم شاب لون وجوههم شئ، فقاموا ودخلوا أنهارا فاغتسلوا فيها، فخرجوا وقد خلصت ألوانها فصارت مثل إخوانهم، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم .
فقال رسول الله :
ـ يا جبريل من هؤلاء البيض الوجوه، ومن هؤلاء الذين فى ألوانها شئ، وما هذه الأنهار التى دخلوها ؟.
فقال جبريل :
ـ أما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، وأما هؤلاء الذين فى ألوانها شئ فقوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم ، وأما هذه الأنهار فأولها : رحمة الله ، والثانى : نعمة الله ، والثالث : "* وسقاهم ربهم شرابا طهورا ."
ثم رفع إلى البيت المعمور ..
وقيل للنبى هذا مكانك ومكان أمتك ؛ وإذا بأمته شطرين :
شطر عليهم ثياب كأنها القراطيس .
وشطر عليهم ثياب رمد .
فدخل النبى البيت المعمور ، ودخل معه من أمته الذين عليهم الثياب الرمد وهم فى خير ، فصلى ومن معه من المؤمنين ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .
.. ولما انتهى النبى من صلاته خرج ومن معه .
قال رسول الله ﷺ :
ـ " مررت ليلة أسرى بى على الملأ الأعلى فإذا جبريل كالحلس البالى من خشية الله ".
.. ثم رفع رسول الله ﷺ إلى سدرت المنتهى ، وإليها ينتهى ما يعرض من الأرض فيقبض منها ، وإليها ما يهبط من فوق فيقبض منها ، وإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها ، وإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، تكاد الورقة منه تغطى هذه الأمة .
.. وقيل للنبى :
ـ هذه سدرت المنتهى ينتهى إليها كل أحد من أمتك خلا على سبيلك .
وإذا فى أصلها عين تجرى يقال لها السلسبيل، ينشق منها نهران : أحدهما الكوثر، يطرد عجاجا مثل السهم، عليه خيام من لؤلؤ وياقوت وزبرجد، وعليه طيور خضرـ أنعم طير، رأى فيه آنية الذهب والفضة، تجرى على رضراض من الياقوت والزبرجد، ماؤه أشد بياضا من اللبن، فأخذ النبى آنية فاغترف وشرب، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد ريحا من المسك .
قال جبريل :
ـ هذا هو النهر الذى حباك به ربك ، والنهر الآخر نهر الرحمة .
فاغتسل فيه النبى ، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

.. ولما اقترب النبى من الجنة ، فإذا فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فرأى على بابها مكتوبا :

" الصدقة بعشرة أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ".

فسأل رسول الله عن السبب ، فقال جبريل :

ـ لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يسأل إلا من حاجة .

واستقبلته جارية فسألها :

ـ لمن أنت ؟ .

قالت :

ـ لزيد بن حارثة .

ورأى الجنة درة بيضاء و فيها قبب من اللؤلؤ ، فقال :

ـ يا جبريل ، إنهم يسألوننى عن الجنة ؟ .

فقال جبريل :

ـ أخبرهم أنها قيعان ترابها المسك .

وهنا سمع خارجها وجسا ، فسأل رسول الله ﷺ :

ـ يا جبريل ما هذا ؟ .

قال جبريل :

ـ بلال المؤذن .

.. وسار النبى فإذا هو فى الجنة ، وبها أنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى، وإذا رمانها كالدلاء، وإذا بطيرها كالبخاتى، وبينما هو يسير بنهر على حفتيه الدر المجوف، وطينه مسك أزفر، قال جبريل :

ـ هو الكوثر .. وهذا ما وعد به الله عباده المؤمنين .

.. ثم عرضت عليه النار التى وعد الله بها الكافرين والمشركين؛ فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، ولو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها .

ورأى مالك خازن النار، فإذا هو رجل عابس يعرف الغضب فى وجهه، فبدأ رسول الله السلام ﷺ، ثم غلقت النار دونه، وتجسد قول الله جل وعلا :

" * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) سورة الزخرف

.. ثم رفع إلى سدرت المنتهى ، فغشيها من أنوار الخلائق و أنوار الملائكة أمثال الغربان يقض على الشجرة ، و ينزل على كل ورقة ملك من الملائكة ، فغشيها سحابة من كل لون ـ وفى حديث ـ أن جبريل قال للنبى :

ـ إن ربك يسبح .

قال رسول الله :

ـ وما يقول ؟ .

قال جبريل :

ـ " رحمتى سبقت غضبى ".

.. تأخر جبريل عن رسول الله ، فقال له يستحثه :

- تقدم يا أخى يا جبريل .

قال جبريل :

- لكل مخلوق مقام، وأنا لو تقدمت لاحترقت، وأنت لو تقدمت لاخترقت .

.. ثم عرج بالنبى حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام، ورأى رجلا مغيبا فى نور العرش، وأعلم أنه ليس بملك، ولا نبى، بل هو رجل من أمته كان فى الدنيا لسانه رطبا من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم ينتسب لوالديه قط .

وأرى نور ربه سبحانه وتعالى .

فخر ساجدا ..

وسلم ساجدا ..

وكلمه ربه عند ذلك ، فقال له سبحانه وتعالى : " يا محمد "

قال عبد الله محمد :

- لبيك يا رب .

قال تجلت قدرته وعظمته : " سل "

قال :

- إنك رب اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما ، وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح ، وأعطيته ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك ، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما من سبيل .

فقال الله الحكم العدل الرحمن الرحيم :" قد اتخذتك حبيبا ، وأرسلتك للناس كافة بشيرا ونذيرا ، و شرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، لا أذكر إلا وذكرت معى ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون ، وجعلت أمتك لا يجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقا وأخرهم بعثا ، وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعا من المثانى لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك الكوثر ، وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام ، والهجرة ، والجهاد ، والصدقة ، وصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وأنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك الصلوات الخمسة، فقم بها أنت وأمتك .

.. ثم انجلت السحابة .

.. وأخذ بيده جبريل .

فانصرفا سريعا .

.. وركب النبى منصرفا إلى سماء الدنيا ، فرأى دخانا فسأل :

- ما هذا يا آخى يا جبريل ؟ .

فقال جبريل :

- هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم ممن لا يتفكرون فى ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذلك الانشغال لرأوا عجبا .

ومر البراق فى طريق العودة لمكة ، بعير لقريش منها جمل عليه غرارتان واحدة بيضاء والأخرى سوداء ، فلما حاذى العير البراق نفرت واستدارت تريد الفرار ، فردها ركابها ، وصرخ البعير حامل الغرارتين فلقد انكسرت ساقه ، ثم مر بقافلة قد ضل منها بعير ، فسلم النبى على أهلها فسمعوه ، قال بعضهم :

- هذا صوت محمد .

- 10 -

.. حين أصبح رسول الله ﷺ ، جلس يتفكر بجانب الكعبة يستعيد ما أورى ، وهو مهموم كراهية أن لا تصدقه صحابته ، فمر عليه أبو جهل ، وأسعده الحال التى رأى النبى عليها ، فراح يتظاهر بالتودد إليه ، راغبا فى أن يعلم بما أهمه ليفرح وتبرد نار كراهيته قليلا بخبر يسوء محمدا .

قال له شامتا وقد تسترت عباراته فى نفاق كريه :

- هل كان من شئ ؟ .

قال محمد ﷺ :

- نعم .

قال أبو جهل :

- ما هو ؟ .

قال محمد ﷺ :

- أسرى بى الليلة .

قال أبو جهل :

- إلى أين ؟ .

قال رسول الله ﷺ :

- إلى بيت المقدس .

تحركت الأفعى بعنف تستجمع سمها ، ثم نفثته بقوة :

- أكنت ببيت المقدس عشية ، ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟!.

قال الصادق ﷺ :

- نعم .

التفت الأفعى حول الفريسة ، ورفعت رأسها وكشرت عن أنيابها متسائلة ، والرغبة فى العقر تلهب حماسها فيتناثر السم من شدقيها :

- أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى ؟ .

قال رسول الله ﷺ :

- نعم افعل .

اندفعت الأفعى قافزة تنفث السم ، تنادى :

- هلم يا معشر بنى كعب بن لؤى .

فانفضت مجالس قريش ، وتجمعت حولهما ، فقالت الأفعى لرسول الله ، والسم يتناثر مع كلماتها ، وقد أخذتها شهوة القتل :

- حدث قومك بما حدثتنى .

وحدثهم رسول الله بما حدث ، فتصايح القوم غير مصدقين ، وقال المطعم بن عدى :

- كل أمرك قبل اليوم كان يسيرا ، غير قولك اليوم ؛ أنا أشهد أنك لكاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدا شهرا ومنحدرا شهرا ، أتدعى أنت أنك أتيته فى ليلة ، واللات والعزى لا أصدقك .

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لمطعم :

- بئس ما قلت لابن أخيك ، جبهته وكذبته ، أما أنا فأشهد أنه صادق .

.. ورفعت الأفعى رأسها وتمايلت فى سرور ، فأبو جهل يعرف أن محمدا ما سافر قط إلى بيت المقدس ، فقال له فى تحد :

- إذن صف لنا بيت المقدس ، كيف كان بناؤه ، وكيف كانت هيئته ، وكيف كان قربه من الجبل ؟ .

وكان من بين القوم من سافر إلى هناك ، ورأى المكان وعاين تفاصيله ، وبدأ رسول الله يصف البناء ، وهم يلاحقونه بالأسئلة ، حتى بات الأمر ملتبسا عليه ، واستجمعت الأفعى السم فى أنيابها ، فها قد حان وقت اللدغ .

.. ولكن إن كان أهل محمد خاذليه ، فإن رب العالمين لا يخذله فى أمر هو الصدق بعينه ، ونقل القادر بقدرته بيت المقدس إلى رسوله ، فصار ينظر إليه ويجيب القوم ، فلا يترك أنملة إلا ووصفها ، والصديق أبو بكر رضي الله عنه يكبر مؤمنا على كل حرف يقوله ، والأفعى تتقلص وتتثنى غيظا وكمدا ، وحين انتهت المناظرة ، أُقر له القوم فقالوا :

ـ أما النعت فوالله لقد أصاب .

.. وسارعت الأفعى بالدخول إلى جحرها ، ولكنها عادت تطل ومعها مزيد من الأفاعى ، فلعل الكثرة توقع بالفريسة ، وطلب المتحلقون المزيد من البراهين ، فقالوا :

ـ يا محمد أخبرنا عن عيرنا التى خرجت إلى هناك ؟ .

قال النبى :

ـ مررت بعير حالها كذا وكذا ..

.. وأخذ يصف لهم ما رأى العير عليه ، وهو فى طريق عودته ، ثم أضاف :

ـ وها هى ذى سوف تطلع عليكم من الثنية .

وتدافعت الأفاعى إلى طريق الجبل تنظر فلا ترى شيئا ، فتتمايل فى نشوة ، وتمر الساعات ، ويقبل الليل ، ويعلو الفحيح ، وينسى القوم كل ما قال النبى وصدقوه فيه من وصف للمسجد الأقصى ، وما قدم من دلائل على صدق إسرائه ، وراحوا يهزؤون بقوله ، ويكذبونه فى كل ما ذكر؛ ولكن ها هو ذا خطو العير يهز الأرض من تحت أرجلهم هزا ، فتهتز اتهاماتهم ، وترتعش كلماتهم ، وتخفت أصواتهم ، ثم ها هى ذى رائحة التراب تزكم أنوفهم ، وتنتشر فتسود وجوههم ؛ ومن الثنية تظهر قوافلهم العائدة ، وتطأ البعير بخفافها الأفاعى التى أذهلتها المفاجأة فتخشبت فى أماكنها مشدوهة ، وقد استغرقتها المفاجأة ، ثم لا تكتفى بما ترى ، فتنطلق إلى الركب العائد تتحرى ، وتتقصى وتدقق ؛ فإذا بما قال الرسول صدق من صدق .

وفحت الأفاعى وهى تلهث باحثة عن مفر :

ـ إنه لساحر ، وصدق الوليد !! .

: سبحانك ربى ..

: أى عمى هذا الذى أصاب منهم القلوب قبل العيون ، فصاروا لا يبصرون ، ولا يسمعون ، ولا يعقلون ؟! .

.. ألا بعدا للقوم الكافرين .

وانصرف رسول الله ﷺ ، وقد تحوط حوله من بقى بمكة من صحابته ، يسبحون لله ويكبرون .

وأراد الله أن يثبت فؤاد نبيه ﷺ ، فجاءه جبريل عليه السلام وأقرأه سورة النجم :

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(1)مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(2)وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(4)عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(5)ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(6)وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(7)ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(8)فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(9)فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(10)مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(11)أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى(12)وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(14)عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(15)إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(16)مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(17)لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى(18)

فى الصباح ..

اجتمع رسول الله ﷺ بصحابته ، قرأ عليهم ما نزل عليه من سورة النجم ، وحين انتهى الرسول إلى ختام السورة قارئا قول الله تعالى :

هَذَا نَذِيرٌ مِنْ النُّذُرِ الأولَى (56) أَزِفَتْ الآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا(62)

.. خر الصحابة على وجوههم ساجدين لله ، وقد سال الدمع من العيون مدرارا يغسل الأبدان والنفوس ، ويثبت اليقين ، ويملأ القلوب أملا فى أن تدركها رحمة الله ، فيكوا أصحابها من ورثة جنات النعيم .

الفصل الثامن :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

سورة الأنفال

التآمر للقتل

- 1 -

.. وكأنما كانت رحلة الإسراء والمعراج هى إشراق النور والانفراج الكبير للدعوة ، فبعد شهور قلائل ، ومع حلول موسم الحج .

خرج من طيبة وفد من سبعين رجلا وامرأتين من نسائهم ممن أسلموا مع ، قومهم قاصدين مكة ، يتقدمهم كبيرهم البراء بن معرور، وكانوا قد أوفدوا رسولا سبقهم تواعد مع رسول الله ﷺ على أن يلقوه بالعقبة ليلا.

وحين الموعد ..

تسللوا من مضارب خيامهم متخفين فى الظلام إلى حيث أرض الموعد ، وهناك وجدوا رسول الله ، ومعه عمه العباس ، وهو بعد لم يدخل الإسلام ، لكنه جاء مع ابن أخيه نصرة لرابطة الدم وتأمينا له من خيانة قد يكون أهل مكة قد دبروها ، أو غدر ينتويه أعداؤه من اليهود فى طيبة ، وكان العباس ممن يترددون على ديار القوم يعرفهم ، ويعرفونه ، فلما اطمأن إلى القوم ، وقف فيهم خطيبا ، قال :

ـ يا معشر الأوس والخزرج ، إن محمدا منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا ، وهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، و إنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه .

قال البراء فى حب ، مستحثا رسول الله ﷺ ، وهو فى غاية الشوق للاستماع إليه :

ـ قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، وخذ لربك ولنفسك ما أحببت .

تحدث رسول الله ﷺ ..

فحمد الله ..

وتلا القرآن ..

ورغب فى الإسلام ..

.. ثم قال :

ـ أبايعكم على أن تمنعونى ، مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء بيد رسول الله ﷺ وقال فى حماسة المخلصين :

ـ والذى بعثك بالحق ، لنمنعك مما نمنع منه إزارنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل حرب ، وأهل السلاح ، ورثناها كابر عن كابر. .

.. وأضاف أبو الهيثم بن التيهان متسائلا :

ـ يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا إن قطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ .

فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال :

ـ بل الدم الدم ، الهدم الهدم ، بل أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

ثم طلب النبى ﷺ أن يتخيروا من بينهم اثنى عشر نقيبا ، فانتخبوا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، فقال لهم رسول الله ﷺ :

ـ أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين عيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

قالوا :

ـ نعم .

.. ونهض من بينهم " العباس بن عمر الخزرجى " يؤكد البيعة ، ويشحذ الهمم فقال :

ـ يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ، إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنه فيما إذا أنهكت أموالكم ، أو إذا قتلت أشرافكم مصيبة فأسلمتموه ، فمن الآن فهو والله خزى الدنيا والآخرة إن فعلتم ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه : على نهكة أموالكم ، وقتل أشرافكم فى سبيل الله ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا :

ـ نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ .

قال نبى الله :

ـ الجنة .

قالوا :

ـ ابسط يدك .

.. فبسط رسول الله يده ، فضربوا بأيديهم مجمعين فبايعوه .

وهنا سمع من رأس العقبة صوت الشيطان يصرخ فى لوعة مستعديا قريشا ، يوقظ أنصاره من نومهم ، وينبههم إلى ما يحدق بهم من خطر نصرة الحق ، وزوال دولته ، قائلا :

ـ يا أهل الديار ، هل لكم فى مذمم والصبأة معه ، قد اجتمعوا على حربكم .

قال رسول الله ﷺ :

ـ هذا شيطان العقبة ، أما والله لأفرغن له .

ثم التفت إلى الخزرج قائلا :

ـ تفرقوا إلى رحالكم .

قال العباس بن عباده :

ـ والذى بعثك بالحق ، لئن شئت لنميلن غدا على أهل منى فنأخذهم بأسيافنا .

قال رسول الله ﷺ :

ـ لم نؤمر بذلك .

وتفرق القوم إلى مضارب خيامهم ، كما أمرهم رسول الله .

فلما كان الصباح ..

برزت جماعات من قريش إلى مضاجع الخزرج قائلين :

ـ يا معشر الخـزرج ، إنا قـد بلغنا أنكم قد جئتم إلى محمد تستخرجونه من بين ظهرانينا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العـرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فإذا بالمشركين من الخزرج قد انبروا يقسمون بأن شيئا من هذا لم يحدث ، وأنهم قد باتوا ليلـتهم فـما وفد عليهم غريب قط ، ولقد صدقوا فيما قالوا ، فما علموا بشىء مما كان بـين المسـلمين مـن قـومهم ، وبين رسول الله ﷺ .

لم يصدق القرشيون ما قيل ، فلقد وسوس الشيطان لهم بما تـم مـن عهـد واتفـاق ، آلم إبلـيس غايـة الإيلام ، وأزعجه كأشد ما يكون الإزعاج ، وهم يصدقون إبلـيس ولا يصـدقون غـيره ، فراحــوا فى إصرار يبحثون ويستقصون وينقبون ويتسمعون ، إلى أن استيقنوا فى النهاية من أن الأمر قد تـم ، وأن الأوس والخزرج قد بايعت محمـدا ﷺ .

.. ولكن قبل أن يتيقنوا من شـكوكهم ، كـان أهـل طيبـة قـد انفضـوا عائـدين إلى ديـارهم جماعــات وأفرادا ، بعد أن حث من أسلم منهم الآخرين على الإسراع بالرحيل حتى يفوتوا على القرشيين حصرهـم .

ولما تنافرت قريش إلى مضـارب خيام حجاج طيبة ، وجـدوا مكـان خيـامهم قفـرا ، وأدركـوا أن أنصـار محمد قد خدعوهم وغادروهم ، فخرجوا إلى الصحراء يطلبونهم ، فلـم يـدركوا مـنهم غـير " سـعد بـن عبادة " فتكاثروا عليه وأوثقوه وعادوا به إلى مكة ، وراحوا يتبادلون إيـذاءه ، حتـى لقـد أشـفق عليــه رجل منهم لشدة ما أصابه من أذى ، فمال عليه يستحثه لكى يبحث عن طريق للنجاة قائلا :

ـ ويحك ، أما كان بينك و بين أحد من قريش جوار ولا عهـد .

قال سعد :

ـ بلى والله لقد كنت أجيز تجـارة لجبير بن مطعم بن عبد مناف ، وللحارث بن عبد شـمس بـن عبـد مناف ، وكنت أمنعهما ممن أراد ظلمهما ببلادى .

قال الرجل :

ـ ويحك فاصرخ باسم الرجلين ، وما كنت فاعلا لهما .

فنادى سعد باسم الرجلين ، وأسرع الرجل الذى نصحه يبحث عنهما فى أنحـاء مكـة ، حتـى وجـدهما بالمسجد عند الكعبة ، فأخبرهما بأن رجلا يضرب ، ويهتف بهما لما كان بينهما وبينه من جـوار ، فأسرعـا إلى سعد وأجاراه ، فانطلق عائدا إلى طيبـة ، بعد أن أصابه من الأذى الكثير .

ـ 3 ـ

أضرمت العقبة الثانية النار التى بدا على السطح وكأنها لن تتوهج ثانيـة ، بـين مشركى قـريش ، وبـين رسول الله ﷺ وصحابته ، فلقد رأى القرشيون فى دخول أهل طيبة مـن أوس وخـزرج فى ديـن محمـد ، بكل تلك الأعداد الكبيرة ، وهم أهل حرب ، نـذير شـئوم يؤكـد أن محمـدا ﷺ إذا مـا هاجــر إلـيهم ، سوف يفد لقتالهم والانتصار عليهم ، وإذلال أعناقهم ، وقطـع أوتـانهم ، فيـنقص بـذلك مـن قـدرهم ، ويدس أنوفهم فى التراب ، ويهزم إرادتهم التى ارتضوها : فكيف لمحمـد وهو اليتيم ، الباحث عن مجير منذ ولد : أن تكون له الريادة على قريش مجتمعة فيصبح : آمرهم ، وحاكمهم ، وصاحب الكلمة فيهم ؟! ؛ وكيف له وهو فرد ، أن ينتصر وحده على جمعهم، وقد اتفقوا على كراهيته وكراهية ما يبشــر بــه ؟! ؛ وكيـف قبل هــذا وبعـده ، أن يتساووا مع عبيدهم والمستضعفين من مـواليهم ، فتتـدنى هيبـتهم وتضيع عزتهم ، وهم السادة المكرمون ؟!.

- 4 -

.. شدد مشركو مكة حراستهم لمداخل قريتهم ، فقد توجسوا من هجرة من بقى من أصحاب محمد ، ثم زادوا من إيذائهم لصحابته ، وهو ما دفعهم إلى أن يشكو لرسول الله ﷺ قسوة ما يلاقون من إيذاء بالقول والفعل ، وطلبوا منه أن يأذن لهم بالهجرة ، ووعدهم رسول الله بأن يدعو الله تعالى ، أن يكشف له مكان هجرتهم ، وبعد أيام خرج عليهم قائلا :

ـ لقد أخبرت بدار هجرتكم وهى طيبة ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها .

وتسللت كثرة من الصحابة فى غفلة من القرشيين ، وشقوا طريقهم فرادى إلى طيبة ، وهم واثقون من كونهم سيجدون عند من أعطوا رسول الله البيعة من الأنصار : أمنهم وراحتهم .

وقد نجح أكثر من حاولوا هجر مشركى مكة فى الخروج من بينهم ، وفشلت قلة منهم ، وأعيدوا إلى قريتهم ، مهانين مكبلين بالأغلال .

.. أما عمر بن الخطاب ، فلقد تمنطق سيفه ورمحه وجهز نبله واتجه إلى الكعبة ، فاستلم الحجر الأسود وطاف سبعا ، ثم صلى فى الحجر ، وبعدها وقف مواجها جموع المشركين وجلجل صوته فى قوة وتحد ، قائلا :

ـ شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه الأنوف ، من أراد أن يثكل أمه ، أو يؤتم ولده ، أو يرمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى .

.. وشق عمر طريقه مهاجرا رغم أنوف المشركين ، وخرج من مكة نهارا جهارا .

.. وأما أبو بكر ؓ ، فهو وحده من أعيد مكرما مجارا ، وهو راغب عن البقاء فى ذلك الجو الخانق الكريه ، ولكنه غير ناقم على من أعاده ، فما كان واجدا راحته فى أى مكان مهما بلغت درجات الأمن به ، وكيف له أن يجد الراحة والحبيب محمد غير آمن ؟!! .

وحين جلس إلى رسول الله ﷺ ، قال له باسما ومسحة من الألم تغلف ملامحه الشريفة :

ـ لا تعجل ، لعل الله أن يجعل لك صاحبا .

.. وتمنى أبو بكر على الله أن يكون الحبيب هو صاحبه فى هجرته إلى طيبة ، وبادر فأعد للأمر عدته فاشترى راحلتين لتحملهما فى رحلة الخروج ، واهتم بإطعامهما ، وجهز الزاد ، وبعد حين اتفق مع عبد الله بن أريقط ، على أن يكون دليله ، ثم دفع بالراحلتين إليه ، وتعاهد معه على كتمان الأمر ، على أن يخبره بالموعد حين يؤذن .

.. ولما تم لأبى بكر ما أراد ، صارح رسول الله ﷺ ، بما أعد ، وكيف استعد للحظة الرحيل، فبارك له عمله، واشترط أن يدفع له ثمن الناقة التى اشتراها ليرحل عليها ، ودفعه إليه .

- 5 -

بقى رسول الله ﷺ فى مكة ، وبقيت معه قلة ممن لم يستطيعون فرارا ، فكان عليهم أن يمارسوا مع مشركى مكة سياسة الصبر على المكاره فهم : الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .

.. وكانت الأنباء تترى ، يحملها من يفدون من طيبة إلى مكة :تحكى عن حال من هاجر من المسلمين ، وتتغنى بحسن الجوار ، ورغد العيش الذى يعيشون ، وتتحدث عن انتشار الإسلام والمسلمين، فكانت تصل إلى أسماع المحصورين فتخفف عنهم آلامهم ، وتبعث الآمال فى نفوسهم بقرب نفاذ وعد الله ، وتنادوا : "* ألا إن نصر الله قريب " .

.. وتنادى المشركون بأن ..

: زيدوا من رقابتكم لأصحاب محمد ، ومن أماناتكم عند الأمين حتى نضمن عدم خروجه من بيننا سرا ، فمن المحال أن يغادر مكة دون أن يرد الأمانات إلى أصحابها ، فإذا ما فعل ذلك ، عرفنا بنيته على الهجرة إلى طيبة .

وسارع المشركون فى نسج شباكهم ، يلفون خيوطها حول رسول الله ﷺ : أموالا ، وذهبا ، وفضة ، حتى سيوفهم ، ودروعهم لفوها حوله ، والرسول على عهده يقبل أماناتهم ، ولا يرد منهم أحدا .
.. ولكن هل ترد الطمأنينة على قلب الخائن ؟!! .
.. إنه قلب صنع القلق وأحدث الروع لغيره ، فكيف له أن يعرف الراحة ، أو يأمن المكر ؟! .
وهكذا وجد المشركون أنفسهم فى طريق مسدود : فكيف لمحمد مهما فعلوا به وله أن يقبل البقاء بينهم ، بينما أنصاره بطيبة يتكاثرون ، ويزدادون قوة ومنعة ، وهو من قال من قبل ، وأثبت بالفعل قوله :
- " والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته " ؟ .

.. وإذا ما وضعوا الحديد فى رجليه ويديه وأبقوه قسرا ، فكيف لهم أن يمنعوا أنصاره بطيبة من النزول عليهم نزلة الصاعقة، فيغلبونهم، ويأخذونه بجدع أنوفهم، ويجعلون منهم أضحوكة على لسان القبائل فى كل مكان ؟!.
أو يستثير ظلمهم لمحمد حمية أهله، وهم أصحاب قوة ومنعة ، فيكرون عليهم، ويستخلصونه من بين أيديهم، أو يورثهم العند الإسلام ، فيدخلون فى دين محمد كراهة لما فعلوا بابنهم وانتصارا له ، فتنشق قريش ، وتتفتت وحدتها !! .
.. كثرت الأسئلة وتكاثرت تدق رؤوس قادة الشرك ، وترهق أبدانهم بالسهر والحمى ؛ حتى باتوا لا ينامون الليل ، ولا يستقر بهم صباح ، فتنادوا قبل أن تلتاث عقولهم : أن هلم إلى دار الندوة حيث يدبر لكل أمر عظيم .
.. لقد كانوا يمكرون ، ويكشف الله لنبيه ﷺ كيدهم ، ويخبره جبريل بما يضمرون ، ثم حمل إليه أمر الله ، بأنه قد أذن له بالهجرة إلى طيبة .

- 6 -

.. فى دار الندوة ، اجتمع ما يزيد على مائة رجل من كل القبائل ، حتى ضاقت بهم الدار وما حولها ، وامتنع بنو هاشم وبنو عبد المطلب عن الحضور ، وسمى هذا اليوم لكثرة من شاركوا فيه يوم الزحمة .
.. وعلى باب الدار وقف إبليس ، وقد ارتسم فى صورة شيخ عليه برد ثقيل ، فلما
سألوه متوجسين من أن يكون عينا عليهم :
- من الشيخ ؟! .
قال :
- شيخ من أهل نجد سمع بما اجتمعتم له ، فجاء ليسمع ما تقولون ، وعسى ألا يعدم رأيا ونصحا .
ورغم أعرافهم التى تمنع دخول الأغراب دار الندوة ، قالوا له :
- أجل ، فأدخل .
دخل إبليس وتخير موقعا يتوسط عقدهم ، وجلس يستمع ، وما كان فى حاجة لأن يدخل ، فهو فى واقع الأمر صاحب الدعوة ؛ وبدأ المشركون يتحدثون بما هجست به نفوسهم ، ثم بدأت رحلة البحث عن سبيل للخلاص من صاحب الدعوة التى تقض مضاجعهم ، وتبدد أحلامهم ، وتفرق جماعتهم : فقال من قال بنفيه ، وعاب إبليس ما قيل مفندا أسبابه ، وقال آخرون هو شاعر مجنون فلنحبسه كما حبسنا غيره من الشعراء والمجانين ، ولنتربص به ريب المنون ، وعاب إبليس قولهم وانتقص من حكمتهم ، ثم راح يأخذ فكرهم متجها بالحديث والنفوس إلى حيث قصد وأراد ، وما إن تمكن من أبى جهل بن هشام ، حتى هب أبو جهل قائلا :
- والله إن لى فيه رأيا ما أراكم قد وقعتم عليه .
تصايح القوم قائلين :
- وما هو يا أبا الحكم ؟ .

قال إبليس على لسان الناطق بلسانه :
ـ أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى قويا نسيبا ونعطى كل شاب سيفا صارما ، فإذا ما خرج محمد من داره ، وثبوا عليه فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ويتفرق دمه بين القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف قتال قومهم جميعا ، فيرضون بالدية .
ولما وجد إبليس استحسانا من القوم لما قيل ، تنهد فى راحة وقال :
ـ القول ما قال الرجل ، ولا رأى غيره .
وتفرق القوم مجمعين على تنفيذ ما ارتأى إبليس ، وجأرت وديان مكة ألما لما وصل إليه حال أهلها ، ونقل جبريل عليه السلام ما عزم المشركون على فعله ، إلى النبى ﷺ .
.. وخرج رسول الله ﷺ إلى دار الصديق ، فى غير الموعد الذى اعتاد أن يزوره فيه ، فالوقت ظهر ، والناس لا تخرج من دورها فى مثل هذا الهجير ، ولذا ما إن رآه الصديق ﷺ حتى قال لنفسه ..
: والله لا يأتينا رسول الله ﷺ فى مثل هذا الوقت إلا لأمر جلل .
.. ولم ينتظر الصديق حتى يدخل الحبيب ، بل سارع خارجا ، يلقاه على باب الدار وهو يقول :
ـ فداك أبى وأمى يا رسول الله .
قال الحبيب ﷺ بعد أن استأذن فى الدخول :
ـ أخرج من عندك .
قال الصديق :
ـ هم أهلك يا رسول الله ، قل ولا تتحرج .
قال الحبيب :
ـ لقد أذن لى فى الهجرة .
قال الصديق فى لهفة :
ـ الصحبة ، الصحبة ، يا رسول الله .
قال الحبيب ﷺ :
ـ نعم .

ـ 7 ـ

حين جن الليل ..
اجتمعت رؤوس القبائل ، وتخيرت كل قبيلة فتاها ، واتفقوا على الالتقاء فى منتصف الليل أمام باب رسول الله ﷺ لتنفيذ جريمتهم .
كانوا ينفلتون من دورهم كالأشباح ، متدثرين ببرد ثقيلة ، يخفون تحتها سيوفهم ، ويمرقون مسرعين لا يلتفتون ، ولا يصدر عنهم صوت ، مخافة أن يسبقهم إلى دار رسول الله ﷺ من يحذره ، فيفلت من أيديهم ، أو تتحرك نخوة الرحم فى أحد من بنى عبد المطلب ، فينافر قومه ، فيهبوا لنجدة ابنهم .
وحين اجتمعوا حول بيت رسول الله ، مر بهم أبو جهل ، ولما رأى كثرة عددهم ووفائهم بما عاهدوا عليه ، لم يملك نفسه من الشماتة ، فقال لهم بصوت مرتفع ، سمعه رسول الله ﷺ من داخل داره :
ـ إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره ، كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنات كجنات الأردن ؛ وإن لم تفعلوا كان فيكم الذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نارا تحرقون فيها .
.. فرد رسول الله ﷺ على أبو جهل قائلا :
ـ نعم أنا أقول ذلك ، وأنت أحدهم .
وارتعد أبو جهل لما وصله رد رسول الله ، وانتفض فى هلع ، فما كان يظن أن محمدا قائم يعبد ربه إلى هذا الوقت المتأخر من الليل ، فأوسع أبو جهل الخطى مهرولا إلى داره ، وقلبه ينبض فى خوف ؛ وإذا كان حاله كذلك ،

ترى كيف كان رد فعله إذا عرف بأن رسول الله ﷺ قد أنبأه ربه بكل ما يحاك له خارج بابه ؟!! .

.. انثنى رسول الله ﷺ إلى حيث نام علي ، فأيقظه ، وأخبره بأنه مهاجر للحظته إلى طيبة ، وطلب منه أن ينام فى فراشه ، ويتدثر ببردته الخضراء ، ولا يخش سوءا ، فإن الله تعالى حافظه من كل سوء ، وأوصاه أنه إذا ما أصبح ، عليه أن يرد الأمانات التى عند رسول الله إلى أصحابها .

.. واستمع على فى صمت ، ولم يناقش رسول الله ﷺ فى شئ ، رغم تخوفه الشديد عليه من أولئك الذين يسمع لهاث أنفاسهم من وراء الباب .

.. ثم خرج رسول الله ﷺ من داره فى مواجهتهم ..

.. وضرب الله على أبصار القتلة ، فلم يروه ، وأخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب ، وراح ينثرها على رؤوسهم ، وهو يقرأ قول الله تعالى من سورة يس :

يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (9)

.. ثم انصرف خارجا ، بعد أن جعل رب القدرة بينه وبين المشركين سدا ، فأغشاهم فهم لا يبصرون ، فهاهم أولاء يعمون عن رؤية الحبيب صلى الله عليه وسلم تسليما ، وهو يخرج من بينهم ، فكأنهم مستمرين فى عمى القلوب ، الذى جعلهم من قبل لا يبصرون روح وحقيقة دين الرحمة ، الذى جاءهم به محمد ﷺ من عند رب العالمين .